الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

الطريق إلى الأندلس

لمحات وقطوف

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

الطريق إلى الأندلس

لمحات وقطوف

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

اعتنى بهذا الكتاب
يمان عبد الرحمن الباشا

الغلاف والخطوط
منير الشعراني

الإعداد الفني والجمع التصويري
بدار الأدب الإسلامي

رقم الإيداع
١٧١٠ / ٢٠٠٠

ISBN
977-5827-05-1

دار الأدب الإسلامي

للنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

ص.ب : ٨١ - بريد بانوراما

١١٨١١ القاهرة - ج. م. ع.

هاتف : ٤٠٢٠٨٦٦

فاكس : ٢٦٦٠١٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حِصْنُ بَابِلْيُونَ

قَالَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ :

(سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّىٰ فِيهَا القِيرَاطُ[1]، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْراً، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً) .

فَمَا كَانَ مُسْلِمٌ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ « مِصْرَ » مَفْتُوحَةٌ لَا مَحَالَةَ .

وَإِنَّمَا هُوَ الأَوَانُ المَحْتُومُ فِي يَوْمٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ .

* * *

وَفِي مَطْلَعِ سَنَةِ عِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ ...

قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ إِثْرَ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ .

---

(١) القيراط : معيار في الوزن والقياس .

فَخَلَا بِهِ عَمْرُو بْنُ العَاصِ[١] فِي قَرْيَةِ « الجَابِيَةِ » القَرِيبَةِ مِنْ « دِمَشْقَ » ، وَقَالَ لَهُ :

يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، إِئْذَنْ لِي بِأَنْ أَسِيرَ إِلَىٰ « مِصْرَ » ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهَا ، كَانَتْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَوْناً لَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ .

وَمَا زَالَ بِهِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ فَتْحَهَا ، وَيُعَظِّمُ أَمْرَهَا ، حَتَّىٰ رَكَنَ[٢] إِلَيْهِ الفَارُوقُ ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ المُسْلِمِينَ .

فَمَضَىٰ عَمْرٌو بِجُنْدِهِ لَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ[٣] .

لَكِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ رَحِيلِهِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[٤] عَلَىٰ عُمَرَ ، وَقَالَ لَهُ :

---

(١) عَمْرُو بْن العَاص : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) رَكَن إليه : ارتاح إليه واطمئن .

(٣) لا يلوي علىٰ شيء : لا يقف عن شيء ولا ينتظر .

(٤) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ عَمْراً لَمِقْدَامٌ[١] جَرِيءٌ ...

وَإِنَّ فِيهِ حُبّاً لِلْإِمَارَةِ ...

فَأَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَرَجَ إِلَىٰ « مِصْرَ » فِي غَيْرِ عُدَّةٍ وَلَا عَدَدٍ ، فَيُعَرِّضَ الْمُسْلِمِينَ لِلْهَلَكَةِ .

فَنَدِمَ الْفَارُوقُ عَلَىٰ إِذْنِهِ لِعَمْرٍو بِفَتْحِ « مِصْرَ » ، وَبَعَثَ خَلْفَهُ رَسُولاً يَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَاباً مِنْهُ بِهَذَا الشَّأْنِ .

* * *

أَدْرَكَ الرَّسُولُ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ فِي « رَفَحَ » مِنْ أَرْضِ « فِلَسْطِينَ » ... فَلَمَّا عَلِمَ عَمْرٌو بِقُدُومِ الرَّسُولِ مِنْ عِنْدِ الْفَارُوقِ ، وَأَنَّهُ يَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَاباً مِنْهُ ، تَوَجَّسَ[٢] خِيفَةً مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي مَعَهُ .

فَمَا زَالَ يَتَشَاغَلُ عَنِ اسْتِقْبَالِهِ وَيُغِذُّ[٣] السَّيْرَ حَتَّىٰ بَلَغَ قَرْيَةً مِنْ عَرِيشِ « مِصْرَ » ...

---

(١) مقدام : الكثير الإقدام ، الجريء في الحرب .
(٢) توجّس خيفة : شعر بفزع وخوف .
(٣) يُغذّ السير : يسرع فيه .

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَقْبَلَهُ ، وَأَخَذَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، وَفَضَّهُ[1]؛ فَإِذَا فِيهِ :

« إِنْ أَدْرَكَكَ كِتَابِي هَذَا قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ أَرْضَ « مِصْرَ » فَارْجِعْ إِلَىٰ مَوْضِعِكَ ...

وَإِنْ كُنْتَ دَخَلْتَ أَرْضَهَا فَامْضِ لِوَجْهِكَ » .

فَدَعَا بِالْمُسْلِمِينَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الفَارُوقِ ، وَقَالَ :

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا فِي أَرْضِ « مِصْرَ » ؟ .

فَقَالُوا : بَلَىٰ .

فَقَالَ : فَلْنَمْضِ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

كَانَتْ « مِصْرُ » يَوْمَئِذٍ خَاضِعَةً لِحُكْمِ « الرُّومِ » ، وَكَانَ سُكَّانُهَا مِنَ الأَقْبَاطِ وَهُمْ يَدِينُونَ بِالمَسِيحِيَّةِ .

لَكِنَّهُمْ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كَانُوا يَضِيقُونَ بِالرُّومِ

---

(١) فَضَّ الكتاب : فتحه وقرأ ما فيه .

ذَرْعاً ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ الغُزَاةِ الفَاتِحِينَ ، وَيَلْقَوْنَ مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِمُ الشَّيْءَ الكَثِيرَ .

* * *

وَمَا إِنْ تَوَغَلَ[1] عَمْرٌو قَلِيلاً بِجَيْشِهِ فِي أَرْضِ « مِصْرَ » حَتَّىٰ خَرَجَ لَهُ « الرُّومُ » بِجَيْشٍ لَجِبٍ[2] يَفُوقُ عَسْكَرَهُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، وَلَاقَوْهُ عِنْدَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَىٰ « العَرِيشِ » .

وَخَاضَ المُسْلِمُونَ مَعَ عَدُوِّهِمْ مَعَارِكَ دَامِيَةً : دَفَعَ فِيهَا « الرُّومُ » إِلَىٰ سَاحَاتِ القِتَالِ خِيرَةَ جُنُودِهِمْ ، وَأَعْظَمَ آلَةِ حَرْبِهِمْ ...

وَاسْتَبْسَلَ فِيهَا المُسْلِمُونَ اسْتِبْسَالاً قَلَّمَا شَهِدَ لَهُ التَّارِيخُ مَثِيلاً .

وَدَامَ القِتَالُ شَهْراً كَامِلاً ... ثُمَّ انْجَلَىٰ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَهَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِلرُّومِ .

* * *

---

(١) التوغل : البعد والتعمق.
(٢) اللجب : الكثيف الجرار .

جَمَعَ « الرُّومُ » جُمُوعَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَبَرَزُوا لِعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ كَرَّةً أُخْرَىٰ عِنْدَ « بِلْبِيسَ »[1].

وَدَارَتْ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ حَرْبٌ طَاحِنَةٌ أَبْدَىٰ خِلَالَهَا « الرُّومُ » مِنْ عِنَادِ الْمُقَاوَمَةِ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ بَالٍ ... وَأَظْهَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ صُنُوفِ الشَّجَاعَةِ مَا أَذْهَلَ الْأَعْدَاءَ .

وَدَامَتِ الْمَعَارِكُ دَامِيَةً حَامِيَةً شَهْراً كَامِلاً حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَنَصَرَ .

* * *

ثُمَّ مَضَىٰ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي طَرِيقِهِ لَا يُقَاوَمُ إِلَّا قَلِيلاً ... حَتَّىٰ بَلَغَ حِصْنَ « بَابِلْيُونَ » الْوَاقِعَ عَلَىٰ ضِفَّةِ النِّيلِ بِالْقُرْبِ مِنَ « الْقَاهِرَةِ » الْيَوْمَ .

كَانَ « الرُّومُ » قَدْ أَحْكَمُوا تَحْصِينَ هَذَا الْحِصْنِ الْكَبِيرِ ، فَحَفَرُوا حَوْلَهُ خَنْدَقاً عَظِيماً ، وَبَثُّوا فِي أَفْنَائِهِ حَسَكَ الْحَدِيدِ ...

---

(١) بلبيس : إحدىٰ مدن محافظة الشرقية في مصر .

ثُمَّ اعْتَصَمَ بِالحِصْنِ خِيرَةُ جُنُودِهِمْ، وَأَكَابِرُ رِجَالِهِمْ، وَعُظَمَاءُ القِبْطِ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ «المُقَوْقَسُ» بِطْرِيقُ «مِصْرَ» وَحَاكِمُهَا.

* * *

حَاصَرَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ الحِصْنَ أَمَلاً فِي أَنْ يَضِيقَ حُمَاتُهُ ذَرْعاً بِالحِصَارِ؛ فَيَسْتَسْلِمُوا لَهُ...

غَيْرَ أَنَّ النِّيلَ مَا لَبِثَ أَنْ فَاضَ فَنَسَفَ «الرُّومُ» السُّدُودَ، وَقَطَعُوا الجُسُورَ، فَأَحَاطَ المَاءُ بِالحِصْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَكَادُوا يَهْلِكُونَ غَرَقاً.

عِنْدَ ذَلِكَ كَتَبَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ إِلَىٰ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَنْ يُعِينَهُ بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ.

وَظَلَّ عَمْرٌو وَجُنُودُهُ صَابِرِينَ مُصَابِرِينَ، مُرَابِطِينَ مُجَالِدِينَ؛ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الفَرَجُ.

* * *

ثُمَّ جَاءَ العَوْنُ مِنْ لَدُنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ...

فَأَمَدَّ جَيْشَ «مِصْرَ» بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً كَانَ فِيهِمْ أَرْبَعَةُ

آلَافِ مُقَاتِلٍ عَلَىٰ كُلِّ أَلْفٍ مِنْهُمْ قَائِدٌ يَقُومُ مَقَامَ أَلْفٍ ، هُمْ : الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ ، وَالمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ مُخَلَّدٍ ، وَقَالَ لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ :

اعْلَمْ أَنَّ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً ... وَلَنْ تُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ .

* * *

عَلِمَ « المُقَوْقَسُ » بِالمَدَدِ الَّذِي وَصَلَ إِلَىٰ جَيْشِ المُسْلِمِينَ ... فَأَرْسَلَ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ العَاصِ وَفْداً مِنْ خِيرَةِ رِجَالِهِ لِيُفَاوِضُوهُ وَيَقُولُوا لَهُ :

إِنَّكُمْ قَدْ وَلَجْتُمْ(١) بِلَادَنَا ، وَأَلْحَحْتُمْ(٢) عَلَىٰ قِتَالِنَا ، وَطَالَ مُقَامُكُمْ فِي أَرْضِنَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ عُصْبَةٌ(٣) يَسِيرَةٌ ...

وَقَدْ أَعَدَّ لَكُمُ « الرُّومُ » مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ ...

وَقَدْ أَحَاطَ بِكُمُ النِّيلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ...

---

(١) ولجتم : دخلتم بلادنا .

(٢) ألححتم : ازددتم في طلب القتال . (٣) عُصْبَة : جماعة صغيرة .

فَابْعَثُوا إِلَيْنَا بِرِجَالٍ مِنْ عِنْدِكُمْ نَسْمَعُ مِنْهُمْ ، فَلَعَلَّهُ يَكُونُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مَا نُحِبُّ وَمَا تُحِبُّونَ .

فَلَمَّا أَتَتْ رُسُلُ « الْمُقَوْقَسِ » ، حَبَسَهُمْ عَمْرٌو عِنْدَهُ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ؛ لِيُخَالِطُوا عَسْكَرَهُ وَيَرَوْا حَالَهُمْ .

ثُمَّ رَدَّهُمْ إِلَىٰ « الْمُقَوْقَسِ » وَقَالَ لَهُمْ :

إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ تَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ فَتَكُونُوا إِخْوَانَنَا ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ أَعْطَيْتُمُ الْجِزْيَةَ(١) عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ(٢) ...

فَإِنْ أَبَيْتُمْ جَاهَدْنَاكُمْ بِالقِتَالِ وَالصَّبْرِ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ .

* * *

فَلَمَّا عَادَتْ رُسُلُ « الْمُقَوْقَسِ » سَأَلَهُمْ أَنْ يُحَدِّثُوهُ بِمَا رَأَوْا فَقَالُوا :

---

(١) الجزية : مقدار من المال يدفعه أهل الذمة .

(٢) صاغرون : خاضعون لمطالب الفاتحين .

رَأَيْنَا قَوْماً المَوْتُ أَشْهَىٰ إِلَيْهِمْ مِنَ الحَيَاةِ ، وَالتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّفْعَةِ ...

جُلُوسُهُمْ عَلَىٰ التُّرَابِ ، وَأَكْلُهُمْ عَلَىٰ الرُّكَبِ[١] ...

أَمِيرُهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛ فَمَا يُعْرَفُ سَيِّدُهُمْ مِنْ مَسُودِهِمْ ، وَلَا رَفِيعُهُمْ[٢] مِنْ وَضِيعِهِمْ[٣] ...

إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهَا أَحَدٌ ، يَغْسِلُونَ أَطْرَافَهُمْ وَوُجُوهَهُمْ بِالمَاءِ ...

وَيَخْشَعُونَ لِرَبِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ .

فَقَالَ المُقَوْقَسُ :

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَقْبَلُوا[٤] الجِبَالَ لَأَزَالُوهَا ، وَلَوْ نَازَلُوا[٥] الجِنَّ لَأَبَادُوهَا .

---

(١) وأكلهم علىٰ الركب : أي يجلسون علىٰ الأرض أثناء الأكل.
(٢) رفيعهم : كبيرهم ، وصاحب القدر فيهم.
(٣) وضيعهم : صغير القدر أو المنصب بينهم.
(٤) لو استقبلوا : لو اتجهوا إلىٰ الجبال لأزالوها من مكانها.
(٥) ولو نازلوا الجن : ولو حاربوا الجن.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَنْ أَرْسِلُوا إِلَيْنَا رُسُلاً مِنْكُمْ نُفَاوِضُهُمْ وَنُعَاهِدُهُمْ .

* * *

بَعَثَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ عَشْرَةً مِنْ رِجَالِهِ أَحَدُهُمْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَكَانَ طَوِيلَ القَامَةِ ، عَظِيمَ الهَامَةِ ، أَسْوَدَ البَشَرَةِ ، هَائِلَ المَنْظَرِ ... وَأَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ « المُقَوْقَسِ » ...

تَقَدَّمَ إِلَيْهِ عُبَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهَابَهُ أَشَدَّ الهَيْبَةِ ، وَخَافَهُ أَعْظَمَ الخَوْفِ وَقَالَ :

نَحُّوا عَنِّي هَذَا الأَسْوَدَ وَقَدِّمُوا غَيْرَهُ يُكَلِّمْنِي .

فَقَالُوا جَمِيعاً :

إِنَّ هَذَا أَمِيرُنَا ، وَقَدْ أَمَرَنَا عَمْرُو بْنُ العَاصِ أَلَّا نَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ ، وَأَلَّا نُخَالِفَ رَأْيَهُ .

فَقَالَ المُقَوْقَسُ لِعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ :

تَقَدَّمْ يَا أَسْوَدُ وَكَلِّمْني بِرِفْقٍ؛ فَإِنِّي أَهَابُ[1] سَوَادَكَ.

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ عُبَادَةُ وَقَالَ:

لَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ...

وَإِنَّ فِيمَنْ خَلَّفْتُهُمْ مِنْ أَصْحَابِي أَلْفَ رَجُلٍ كُلُّهُمْ أَشَدُّ مِنِّي قُوَّةً، وَأَفْظَعُ مَنْظَراً...

وَلَوْ رَأَيْتَهُمْ لَكُنْتَ أَرْهَبَ[2] لَهُمْ مِنِّي، وَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ وَأَدْبَرَ[3] شَبَابِي، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مَا أَهَابُ مِائَةَ رَجُلٍ مِنْ عَدُوِّي...

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ:

إِنَّا - وَاللَّهِ - مَا خَرَجْنَا إِلَّا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ...

---

(١) أهابُ: أخافُ وأخشىٰ.
(٢) أرهب: أخاف وأخشىٰ.
(٣) وليت وأدبر شبابي: كبرت سني، وولىٰ شبابي.

وَمَا يُبَالِي أَحَدُنَا أَكَانَ لَهُ قَنَاطِيرُ مِنَ الذَّهَبِ أَمْ كَانَ لَا يَمْلِكُ دِرْهَماً ...

وَقَدْ عَهِدَ[١] إِلَيْنَا نَبِيُّنَا أَلَّا يَكُونَ طِلْبَةُ[٢] أَحَدِنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ...

لِأَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا لَيْسَ بِنَعِيمٍ، وَإِنَّمَا النَّعِيمُ نَعِيمُ الآخِرَةِ.

فَقَالَ الْمُقَوْقَسُ:

أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ... وَلَعَمْرِي مَا بَلَغْتُمُ الَّذِي بَلَغْتُمُوهُ إِلَّا بِمَا ذَكَرْتَ، وَمَا ظَهَرْتُمْ[٣] عَلَى مَنْ ظَهَرْتُمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَكُرْهِكُمْ لَهَا ...

غَيْرَ أَنَّ «الرُّومَ» قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ مَا لَا يُحْصَى عَدَدُهُ ... وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقْوُوا عَلَيْهِمْ؛ لِقِلَّتِكُمْ وَضِيقِ ذَاتِ يَدِكُمْ[٤] ...

---

(١) عهد إلينا: أوصانا، وأخذ علينا عهداً.

(٢) طلبة: الطلب والرغبة.

(٣) ظهرتم: انتصرتم.

(٤) ضيق ذات يدكم: فقركم واحتياجكم.

وَنَحْنُ تَطِيبُ أَنفُسُنَا بِأَنْ نَفْرِضَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ دِينَارَيْنِ ، وَلِأَمِيرِكُمْ مِائَةَ دِينَارٍ ، وَلِخَلِيفَتِكُمْ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ عُبَادَةُ :

يَا هَذَا ، إِنَّ مَا تُخَوِّفُنَا بِهِ مِنْ كَثْرَةِ « الرُّومِ » لَا يَصُدُّنَا عَنْ غَايَاتِنَا ... وَإِنَّا لَفَائِزُونَ بِإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ...

فَإِنْ ظَفِرْنَا بِكُمْ عَظُمَتْ لَنَا غَنِيمَةُ الدُّنْيَا ...

وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِنَا عَظُمَتْ لَنَا غَنِيمَةُ الآخِرَةِ ...

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

وَإِنَّهُ لَيْسَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ ، وَأَلَّا يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ خَائِباً ...

وَقَدِ اسْتَوْدَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا اللَّهَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، وَجَعَلَ هَمَّهُ حَرْبَ عَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّهِ .

ثُمَّ عَرَضَ عُبَادَةُ عَلَى « الْمُقَوْقَسِ » الإِسْلَامَ ، أَوِ الْجِزْيَةَ ، أَوِ الْقِتَالَ ...

فَأَبَىٰ قَوْمُهُ قَبُولَ الإِسْلَامِ وَأَنِفُوا[١] مِنْ دَفْعِ الجِزْيَةِ .

* * *

عَادَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ إِلَىٰ المُسْلِمِينَ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ « المُقَوْقَسِ » ، وَأَنَّهُ لَا مَنْدُوحَةَ[٢] مِنَ اقْتِحَامِ الحِصْنِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِياً .

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَمْرِو ابْنِ العَاصِ :

إِنِّي أَهَبُ[٣] نَفْسِي لِلَّهِ تَعَالَىٰ ، وَأَرْجُو أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ .

* * *

وَضَعَ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ سُلَّماً عَلَىٰ جِدَارٍ مِنْ جُدْرَانِ الحِصْنِ وَصَعِدَ فَوْقَهُ ... وَأَمَرَ جُنُودَ المُسْلِمِينَ إِذَا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ أَنْ يُجِيبُوهُ جَمِيعاً بِصَوْتٍ وَاحِدٍ .

وَمَا هِيَ إِلَّا دَقَائِقُ حَتَّىٰ كَانَ الفَارِسُ المِغْوَارُ[٤]

---

(١) أنفوا : استكبروا .
(٢) لا مندوحة : لا مفر ولا مهرب .
(٣) أهب : أبيع نفسي بيع سماح ، وكأنها صدقة أتقرب بها إلى الله .
(٤) المغوار : الكثير الإغارة على الأعداء .

يَمْتَطِي جِدَارَ الحِصْنِ؛ وَهُوَ شَاهِرٌ[1] سَيْفَهُ بِيَدِهِ، وَصَيْحَةُ اللَّهُ أَكْبَرُ تَنْطَلِقُ مُدَوِيَةً مِنْ فَمِهِ...

فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَهُ آلَافُ الحَنَاجِرِ تُرَدِّدُ:

اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ...

فَزَلْزَلَ دَوِيُّهَا قُلُوبَ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

وَأَلْقَىٰ الزُّبَيْرُ بِنَفْسِهِ دَاخِلَ الحِصْنِ...

وَتَتَابَعَ المُسْلِمُونَ عَلَىٰ إِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَرَاءَهُ، وَأَعْمَلُوا سُيُوفَهُمْ فِي رِقَابِ «الرُّومِ» الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمُ المُفَاجَأَةُ.

وَعَمِدَ الزُّبَيْرُ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ بَابِ الحِصْنِ فَفَتَحُوهُ، فَاقْتَحَمَتْهُ جُمُوعُ المُسْلِمِينَ، وَانْقَضُّوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ انْقِضَاضَ الصَّاعِقَةِ...

وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ ضَرُوسٌ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهَا لِجُنْدِهِ النَّصْرَ، وَضُمَّتْ إِلَىٰ دَوْلَةِ القُرْآنِ لُؤْلُؤَةُ الدُّنْيَا مِصْرُ.

---

(١) شاهر سيفه: أي أخرجه من جرابه وعزم على القتال به.

بِنَاءُ القَيْرَوَان

كَانَ خُلَفَاءُ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ عَهْدِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَازِمِينَ عَلَىٰ أَنْ يُلْحِقُوا بِالرُّومِ هَزِيمَةً سَاحِقَةً عَلَىٰ شَوَاطِئِ المُتَوَسِّطِ وَالأَطْلَسِيِّ فِي المَغْرِبِ كَتِلْكَ الَّتِي أَلْحَقُوهَا بِهِمْ عَلَىٰ ضِفَافِ «اليَرْمُوكِ»[1] فِي المَشْرِقِ...

وَأَنْ يَنْتَزِعُوا مِنْهُمُ السِّيَادَةَ عَلَىٰ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ الَّذِي كَانَ يُدْعَىٰ «بِبَحْرِ الرُّومِ»، وَأَنْ يُطْلِقُوا عَلَيْهِ اسْماً جَدِيداً هُوَ: بَحْرُ الشَّامِ...

وَأَنْ يُحَقِّقُوا بِشَارَةَ نَبِيِّهِمُ الكُبْرَىٰ بِفَتْحِ «القُسْطَنْطِينِيَّةِ»...

بَعْدَ أَنْ حَقَّقُوا بِشَارَتَهُ بِفَتْحِ مِصْرَ...

* * *

---

(١) اليرموك: أحد روافد نهر الأردن، ينبع في هضبة من حوران ويجري في حدود سوريا، ويصب في الأردن جنوب طبرية.

لَمْ يَرْكَنِ الْمُسْلِمُونَ فِي ذَٰلِكَ إِلَىٰ الآمَالِ، وَالأَحْلَامِ، وَالأَمَانِيِّ ...

وَإِنَّمَا حَقَّقُوهُ بِالتَّخْطِيطِ الوَاعِي، وَالإِعْدَادِ الجَادِّ، وَالعَمَلِ الدَّائِبِ[1] ...

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَا فَعَلُوهُ لِهَٰذِهِ الغَايَةِ إِنْشَاءُ الأُسْطُولِ الإِسْلَامِيِّ العَتِيدِ ...

فَلَمَّا وَجَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَعَدُّوا لِلأَمْرِ عُدَّتَهُ، وَاتَّخَذُوا لَهُ أُهْبَتَهُ ... أُعْطِيَتِ الإِشَارَةُ لِلقَادَةِ بِالتَّحَرُّكِ إِلَىٰ الشَّمَالِ الإِفْرِيقِيِّ.

فَتَصَدَّىٰ لِفَتْحِ المَغْرِبِ وَاسْتِنْقَاذِهِ مِنْ أَيْدِي «الرُّومِ» وَإِدْخَالِهِ فِي دِينِ اللّٰهِ قَائِدَانِ كَبِيرَانِ مُظَفَّرَانِ هُمَا: عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ ...

* * *

لَكِنَّ عَمَلَ الرَّجُلَيْنِ العَظِيمَيْنِ كَانَ بِمَثَابَةِ المُقَدِّمَاتِ لِمَا صَنَعَهُ فَارِسُ الإِسْلَامِ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ ...

---

(١) الداثب: المتواصل بلا انقطاع.

ذَلِكَ الفَارِسُ الكَمِيُّ الَّذِي مَا كَادَ يُتِمُّ العِقْدَ الثَّانِيَ مِنْ عُمُرِهِ حَتَّىٰ انْضَوَىٰ[1] تَحْتَ لِوَاءِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ...

وَمَضَىٰ مَعَهُ فِي جَيْشِهِ الَّذِي فَتَحَ أَرْضَ الكِنَانَةِ «مِصْرَ»، وَضَمَّ إِلَيْهَا «بَرْقَةَ» وَ«طَرَابُلُسَ»...

وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لِعُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ أَنْ يَتَتَلْمَذَ عَلَىٰ يَدَيْ ذَلِكَ القَائِدِ العَبْقَرِيِّ الفَذِّ، وَأَنْ يُفِيدَ مِنْ خِبْرَتِهِ الوَاسِعَةِ فِي الحُرُوبِ، وَأَنْ يَنْتَفِعَ مِنْ تَجَارِبِهِ الغَنِيَّةِ فِي الإِدَارَةِ وَالحُكْمِ.

كَمَا أُتِيحَ لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ أَنْ يَكْتَشِفَ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ عُقْبَةُ مِنْ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ وَجَلِيلِ الخَصَائِلِ الَّتِي تُؤَهِّلُهُ لِلقِيَادَةِ وَالنَّصْرِ.

وَقَدْ عَهِدَ عَمْرٌو لِعُقْبَةَ بِوِلَايَةِ «بَرْقَةَ»...

* * *

(١) انضوىٰ: انطوىٰ وسار في جملة الجيش.

كَانَتْ « بَرْقَةُ » آنْذَاكَ بِمَثَابَةِ خَطِّ الدِّفَاعِ الأَوَّلِ ضِدَّ هَجَمَاتِ « الرُّومِ » عَلَىٰ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الرَّابِضَةِ فِي « مِصْرَ » ...

فَقَدْ كَانَ « الرُّومُ » يَوْمَئِذٍ مُسْتَقِرِّينَ فِي الشَّمَالِ الإِفْرِيقِيِّ الَّذِي نُطْلِقُ عَلَيْهِ اليَوْمَ اسْمَ « المَغْرِبِ العَرَبِيِّ » .

وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهُمْ[1] مُسَيْطِرَةً عَلَىٰ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ « بِبَحْرِ الرُّومِ » .

* * *

وَقَدْ نَهَضَ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ بِالمُهِمَّةِ الصَّعْبَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ عَلَىٰ كَاهِلَيْهِ[2] الفَتِيَّيْنِ بِكِفَايَةٍ فَائِقَةٍ شَهِدَ لَهُ بِهَا خُلَفَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَوُلَاتُهُمْ جَمِيعاً .

فَاسْتَبْقَوْهُ فِي وَلَايَتِهِ هَذِهِ نَحْواً مِنْ عِشْرِينَ عَاماً ... تَعَاقَبَ[3] خِلَالَهَا عَلَىٰ الخِلَافَةِ كُلٌّ مِنْ عُمَرَ بْنِ

---

(١) الأسطول : فرقة من السفن تجوب البحار .
(٢) كاهليه : كتفيه .
(٣) تعاقب : تتابع عليها كل واحد في عقب الآخر ، أي بعده .

الخَطَّابِ ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ .

وَقَدْ أَتَاحَتْ هَذِهِ المُدَّةُ الطَّوِيلَةُ لِعُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ أَنْ يَخْتَبِرَ طَبِيعَةَ الأَرْضِ ، وَأَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَىٰ خَصَائِلِ أَهْلِهَا وَقَبَائِلِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ...

وَأَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ مَوَاطِنِ قُوَّتِهِمْ وَمَكَامِنِ[1] ضَعْفِهِمْ ...

وَرَأَىٰ عُقْبَةُ أَنَّهُ مَا مِنْ بَلَدٍ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ يَنْزِلُهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا وَيَجْتَمِعُ تَحْتَ سَمَائِهِ نَصَارَىٰ قُلُوبُهُمْ مَعَ « الرُّومِ » ...

وَأَفَارِقَةٌ وَثَنِيُّونَ مُوَزَّعُو الأَهْوَاءِ ...

وَمُسْلِمُونَ مُجَاهِدُونَ مُرَابِطُونَ .

وَأَيْقَنَ عُقْبَةُ أَنَّ اجْتِمَاعَ هَذِهِ الأَخْلَاطِ مِنَ النَّاسِ فِي

---

(١) المكامن : الأماكن التي يستتر فيها ضعفهم .

بَلَدٍ وَاحِدٍ إِذَا كَانَ مُمْكِناً فِي أَيَّامِ السِّلْمِ... فَإِنَّهُ يَغْدُو مُسْتَحِيلاً فِي أَوْقَاتِ الحَرْبِ...

وَالْمُسْلِمُونَ مَا قَدِمُوا إِلَىٰ هَذِهِ الدِّيَارِ لِلرَّاحَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ...

وَإِنَّمَا وَفَدُوا عَلَيْهَا مُحَارِبِينَ لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ، مُجَاهِدِينَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الأَرْضِ...

وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِمْ أَنْ يُحَارِبُوا عَدُوَّهُمْ مَا دَامَ لِهَذَا العَدُوِّ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ عُيُونٌ وَأَعْوَانٌ...

لِذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَوَافَرَ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ القَاعِدَةُ الصُّلْبَةُ الَّتِي يَسْتَنِدُونَ إِلَيْهَا فِي حَرْبِهِمْ...

وَالمُنْطَلَقُ الحَصِينُ الأَمِينُ الَّذِي لَا تَتَحَرَّكُ فِيهِ الأَرْصَادُ[1] وَلَا تَتَلَصَّصُ فِيهِ العُيُونُ وَالآذَانُ.

* * *

(١) الأرصاد: الجواسيس الَّذِين يرصدون الحركات والأحوال ويبلغونها للأعداء.

لَقَدْ عَقَدَ العَزْمَ لِأَنْ يَبْنِي مَدِينَةً تَكُونُ مُسْتَقَرًّا لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَمُعَسْكَراً لِجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَعِزًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَبَدَ الدَّهْرِ.

وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ اخْتَطُّوهُ فِي المَدِينَةِ الجَدِيدَةِ هُوَ الجَامِعُ ...

* * *

لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ مَبْلَغَ فَرْحَةِ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ حِينَ رَأَىٰ مَدِينَةَ «القَيْرَوَانِ» قَدْ تَمَّتْ بِنَاءً.

وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ مَا كَانَ يَمْلَأُ صُدُورَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَالِحِ النِّيَّاتِ؛ وَهُمْ يُقِيمُونَ صُرُوحَ[1] المَدِينَةِ العَتِيدَةِ فِي قَلْبِ الشَّمَالِ الإِفْرِيقِيِّ ...

فَهُمْ لَمْ يَبْنُوهَا لِيَمْتَلِكَ كُلٌّ مِنْهُمْ دَاراً لِنَفْسِهِ ...

أَوْ يَقْتَنِيَ عَقَاراً لِأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ ...

فَمَطَامِحُ القَوْمِ أَبْعَدُ مِنَ النَّجْمِ.

---

(١) الصروح: القصور العالية.

وَغَايَاتُهُمْ أَسْمَىٰ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا كُلِّهِ ...

وَأَشْوَاقُهُمْ كَانَتْ هُنَاكَ ...

هُنَاكَ فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ.

لَقَدْ بَنَوْهَا لِتَكُونَ عِزًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَقَاعِدَةً مَكِينَةً لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الغَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

* * *

وَلَقَدْ أَمْضَىٰ الْمُسْلِمُونَ فِي بِنَاءِ « القَيْرَوَانِ » خَمْسَ سَنَوَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ ؛ لَكِنَّ عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ لَمْ يُغْمِدِ السُّيُوفَ خِلَالَ هَذِهِ المُدَّةِ الطَّوِيلَةِ لَحْظَةً وَاحِدَةً.

إِذْ ظَلَّ يُشَاغِلُ « الرُّومَ » عَنِ المَدِينَةِ الجَدِيدَةِ بِغَارَاتِهِ المُتَتَابِعَةِ ...

وَيَحْمِي ظُهُورَ بُنَاتِهَا بِغَزَوَاتِهِ المُتَوَاصِلَةِ ...

وَيُدْخِلُ النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً أَفْوَاجاً ...

فَلَمَّا اكْتَمَلَ البِنَاءُ ، وَتَمَّ الِاسْتِعْدَادُ .

وَغَدَتْ جَمِيعُ السُّبُلِ مَفْتُوحَةً أَمَامَ الغَزْوِ الكَبِيرِ لِتَحْرِيرِ شَوَاطِئِ الشَّمَالِ الإِفْرِيقِيِّ كُلِّهَا ، وَانْتِزَاعِهَا مِنْ قَبْضَةِ « الرُّومِ » .

مَضَىٰ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ بِجَيْشِهِ اللَّجِبِ ؛ يَدُكُّ المَعَاقِلَ تِلْوَ المَعَاقِلِ ...

وَيَهْزِمُ الجُيُوشَ إِثْرَ الجُيُوشِ ...

وَيَفُلُّ الجُمُوعَ بَعْدَ الجُمُوعِ .

حَتَّىٰ دَانَتْ لَهُ كُبْرَيَاتُ المُدُنِ فِيمَا يُعْرَفُ اليَوْمَ « بِالجَزَائِرِ » وَ« المَغْرِبِ » .

فَقَدْ أَخْضَعَ « بَاغَايَةَ » ، وَ« تِلِمْسَانَ » ، وَ« أَرْبَةَ » ، وَغَيْرَهَا وَغَيْرَهَا مِنْ عَشَرَاتِ المُدُنِ وَالقُرَىٰ وَالدَّسَاكِرِ[1] .

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ مَدِينَةِ « تَاهَرْتَ » ...

---

(١) الدساكر : جمع دَسْكَرَة ، وهي الأرض المستوية .

وَهُنَاكَ وَجدَ أَنَّ « الرُّومَ » قَدْ جَمَعُوا لَهُ مِنَ « البَرْبَرِ » جُمُوعاً عَظِيمَةً ، لَمْ يَلْقَ الْمُسْلِمُونَ لَهَا نَظِيراً مِنْ قَبْلُ ...

وَدَفَعُوا إِلَىٰ سَاحَةِ المَعْرَكَةِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ...

وَاسْتَقْدَمُوا لَهَا أَعْظَمَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قَادَةٍ ...

وَعَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يُلْحِقُوا بِالْمُسْلِمِينَ هَزِيمَةً سَاحِقَةً مَاحِقَةً تَرُدُّهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ ، وَتَسْتَخْلِصُ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ البِلَادِ وَالعِبَادِ .

* * *

شَعَرَ عُقْبَةُ بِحَرَجِ المَوْقِفِ ، وَأَحَسَّ بِمَا يَعْتَمِلُ فِي صُدُورِ جُنُودِهِ مِنْ خَشْيَةِ العَدُوِّ وَرَهْبَةِ حُشُودِهِ ...

وَخَافَ أَنْ يَفُتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِهِمْ ، وَأَنْ يُحَطِّمَ رُوحَهُمْ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ وَضَعَهُمْ عَلَىٰ أَبْوَابِ المَعْرَكَةِ ، وَوَقَفَ فِيهِمْ خَطِيباً .

وَجَعَلَ الـمُبَلِّغِينَ يَنْقُلُونَ كَلَامَهُ إِلَىٰ عَسْكَرِهِ مُبَلِّغاً إِثْرَ آخَرَ، بِحَيْثُ لَا تَكَادُ تَنْفَصِلُ الكَلِمَةُ عَنْ شَفَتَيْهِ حَتَّىٰ تَسْتَقِرَّ فِي آذَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ جَمِيعاً.

ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ أَسْلَافَكُمْ وَخِيَارَكُمْ مِمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَأَنْزَلَ بَيْنَهُمْ كِتَابَهُ، وَبَعَثَ فِيهِمْ نَبِيَّهُ، قَدْ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ يَداً وَاحِدَةً عَلَىٰ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَأَنْتُمْ حِينَمَا خَرَجْتُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ إِنَّمَا بَايَعْتُمْ عَلَىٰ مَا بَايَعَ عَلَيْهِ أَسْلَافُكُمْ...

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّكُمْ لَمْ تَغْتَرِبُوا عَنْ دِيَارِكُمْ، وَلَمْ تُفَارِقُوا أَهْلَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ إِلَّا طَلَباً لِمَرْضَاةِ اللَّهِ، وَإِعْزَازاً لِدِينِهِ، وَنُصْرَةً لِشَرْعِهِ...

وَحَاشَا لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَخْذُلَ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ يَتَخَلَّىٰ

عَمَّنْ قَامَ فِي سَبِيلِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ فِي مَكَانِكُمْ هَذَا ، وَيَعْلَمُ مَا خَرَجْتُمْ مِنْ أَجْلِهِ ...

فَأَيْقِنُوا بِعَوْنِهِ ، وَاسْتَبْشِرُوا بِنَصْرِهِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَ العَدُوُّ كَانَ الأَجْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَوْفَىٰ وَأَجْزَلَ ، وَكَانَتِ الهَزِيمَةُ لِلْمُشْرِكِينَ أَخْزَىٰ(١) وَأَذَلَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ جَعَلَكُمْ بَأْسَهُ الَّذِي صَبَّهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ .

فَاكْسِرُوا أَغْمَادَ سُيُوفِكُمْ ، وَامْضُوا إِلَىٰ مُقَارَعَةِ(٢) عَدُوِّكُمْ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ ، وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَالصَّبْرِ ...

* * *

أَلْهَبَتْ كَلِمَاتُ عُقْبَةَ مَشَاعِرَ جُنُودِهِ ، وَأَجَّجَتْ رُوحَ الإِيمَانِ وَحَمِيَّةَ الإِسْلَامِ فِي صُدُورِهِمْ تَأْجِيجاً .

---

(١) أخزىٰ : أكثر خزياً وذلاً .
(٢) المقارعة : منازلة العدو وجهاً لوجه .

فَانْطَلَقَتْ حَنَاجِرُهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ...

وَانْدَفَعُوا إِلَىٰ سَاحَةِ القِتَالِ كَمَا تَنْدَفِعُ الأُسْدُ إِلَىٰ فَرَائِسِهَا.

ثُمَّ الْتَقَىٰ الجَمْعَانِ عَلَىٰ أَرْضِ المَعْرَكَةِ، وَتَصَاوَلَ الجَيْشَانِ بِكُلِّ سِلَاحٍ...

وَلَقَدِ اشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ بَلَغَتِ الأَرْوَاحُ مِنْهُمُ الحَنَاجِرَ؛ لَكِنَّهُمُ اعْتَصَمُوا بِإِيمَانِهِمْ، فَصَبَرُوا وَصَابَرُوا، وَتَجَلَّدُوا وَجَالَدُوا...

فَأَخَذَتْ كَفَّتُهُمْ تَرْجَحُ شَيْئًا فَشَيْئًا...

وَلَمْ تَغِبْ شَمْسُ ذَلِكَ اليَوْمِ حَتَّىٰ زَلْزَلَ اللَّهُ أَقْدَامَ عَدُوِّهِمْ، وَدَبَّ الوَهْنُ فِي صُفُوفِهِ، وَجَعَلَ يُوَلِّي الأَدْبَارَ...

فَرَكِبُوا ظَهْرَهُ، وَأَعْمَلُوا السَّيْفَ فِي رِقَابِهِ، وَهَزَمُوهُ هَزِيمَةً سَاحِقَةً.

* * *

مَضَىٰ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ بَعْدَ انْتِصَارِهِ فِي « تَاهَرْتَ » حَتَّىٰ نَزَلَ عَلَىٰ « طَنْجَةَ » ، فَأَجَمَّ[1] فِيهَا قَلِيلاً .

ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْهَا كَمَا يَنْطَلِقُ الإِعْصَارُ ، فَجَعَلَتْ مُدُنُ المَغْرِبِ تَتَسَاقَطُ تَحْتَ سَنَابِكِ خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ فِي فَصْلِ الخَرِيفِ ؛ حَتَّىٰ بَلَغَ شَوَاطِئَ الأَطْلَسِيِّ .

وَهُنَاكَ أَقْحَمَ قَوَائِمَ جَوَادِهِ فِي مَاءِ البَحْرِ ...

وَطَفِقَ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ بَيْنَ جُنُودِهِ الصَّافِّينَ وَرَاءَهُ وَبَيْنَ أَمْوَاجِ المُحِيطِ وَقَالَ :

اللَّهُمَّ ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخْرُجْ بَطَراً وَلَا أَشَراً[2] ، وَلَمْ أَبْغِ[3] - أَنَا وَمَنْ مَعِي - غَيْرَ نَشْرِ دِينِكَ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ ، وَنُصْرَةِ شِرْعَتِكَ ، وَأَنْ تُعْبَدَ فِي هَذِهِ الأَرْضِ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ .

رَبِّ ، لَقَدْ بَلَغْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِي المَجْهُودَ[4] ...

---

(١) أجم : استراح .

(٢) بطراً ولا أشراً : البطر والأشر معناهما متقاربان ، وهو عدم شكر النعمة .

(٣) لم أبغ : لم أرد . (٤) المجهود : أقصىٰ ما يبلغه الإنسان من تعب ومشقة .

وَلَوْلَا هَذَا البَحْرُ لَمَضَيْنَا مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِكَ .

فَتَقَبَّلْ أَعْمَالَنَا بِخَيْرِ مَا تَتَقَبَّلُ بِهِ أَعْمَالَ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ .

ثُمَّ عَادَ أَدْرَاجَهُ قَاصِداً مَدِينَةَ « القَيْرَوَانِ » .

* * *

وَفِيمَا كَانَ فَارِسُ الإِسْلَامِ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ إِلَىٰ « القَيْرَوَانِ » ... عَدَلَ بِنَفَرٍ قَلِيلٍ مِنْ عَسْكَرِهِ نَحْوَ بَلْدَةِ « تَهُوذَةَ » لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهَا .

فَلَمَّا رَآهُ « الرُّومُ » وَأَعْوَانُهُمْ فِي قِلَّةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ طَمِعُوا فِيهِ ، وَجَمَعُوا لَهُ ...

وَأَحْدَقُوا(١) بِهِ كَمَا يُحْدِقُ القَيْدُ بِالعُنُقِ .

فَنَصَحَهُ بَعْضُ أَعْوَانِهِ بِالفِرَارِ فَقَالَ :

لَا وَاللَّهِ ، لَا أَفْعَلُ أَبَداً ...

لَقَدْ أَتَتْنِي الشَّهَادَةُ رَاغِبَةً وَلَنْ أَرُدَّهَا خَائِبَةً ...

---

(١) أحدقوا به : أحاطوا به .

ثُمَّ كَسَرَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ أَجْفَانَ[1] سُيُوفِهِمْ ، وَخَاضُوا مَعَ عَدُوِّهِمْ مَعْرَكَةً ضَارِيَةً ...

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَعْرَكَةً يَائِسَةً مَعْرُوفَةَ الْمَصِيرِ .

فَاسْتُشْهِدَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ ثَلَاثَمِائَةِ مُجَاهِدٍ ...

وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِ الشُّهَدَاءِ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ ...

فَارِسُ الْإِسْلَامِ ...

وَبَانِي الْقَيْرَوَانِ ...

وَفَاتِحُ الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ .

---

(١) أجفان السيوف : أغمادها ، والغمد هو الجراب الَّذي يحفظ فيه السيف .

الـمَلِكَةُ الكَاهِنَةُ

نَحْنُ الآنَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ ، وَعَلَىٰ سَرِيرِ الخِلَافَةِ فِي « دِمَشْقَ » عَاهِلُ[1] بَنِي « أُمَيَّةَ » العَظِيمُ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ .

وَعَلَىٰ وِلَايَةِ « مِصْرَ » أَخُوهُ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ وَالِدُ الخَلِيفَةِ الزَّاهِدِ العَابِدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ[2].

وَكَانَتْ أَصْقَاعُ[3] الإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ تُعْلِي كُلَّ يَوْمٍ رَايَةً مِنْ رَايَاتِ العِزَّةِ ، وَالقُوَّةِ ، وَالنَّصْرِ ...

وَتَنْعَمُ بِالسَّلَامِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالرَّغَدِ .

لَكِنَّ بِلَادَ الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ الَّتِي تَضُمُّ اليَوْمَ « لِيبِيَا » ، وَ« تُونُسَ » وَ« الجَزَائِرَ » وَ« مَرَّاكِشَ » .

---

(١) العاهل : الحاكم الأعلىٰ في الدولة .
(٢) عمر بن عبد العزيز : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٣) أصقاع : جمع صُقع وهي النواحي .

كَانَتْ فِي حَالٍ لَا تَسُرُّ صَدِيقاً وَلَا تُغِيظُ عَدُوًّا .

فَرُقْعَةُ هَذِهِ الأَقْطَارِ الأَرْبَعَةِ وَاسِعَةٌ مُتَرَامِيَةُ الأَطْرَافِ ؛ تَمْتَدُّ مِنْ حُدُودِ « مِصْرَ » شَرْقاً إِلَىٰ شَوَاطِئِ الأَطْلَسِيِّ غَرْباً .

وَطَبِيعَتُهَا تَتَوَزَّعُ بَيْنَ صَحَارَىٰ شَاسِعَةٍ تَحْمِيهَا مِنْ وَطْأَةِ أَقْدَامِ الْفَاتِحِينَ .

وَبَيْنَ جِبَالٍ شَاهِقَةٍ ذَاتِ أَدْغَالٍ ؛ جَعَلَتْهَا أَبْعَدَ مَنَالاً مِنْ عُقْبَانِ الجَوِّ .

وَسُكَّانُهَا الْمُسْلِمُونَ كَانَتْ تَسْحَقُهُمْ رَحَى طَحُونٌ أَحَدُ شِقَّيْهَا « بَرْبَرٌ » قُسَاةٌ عُتَاةٌ ذَوُو بَأْسٍ يَسْتَعْصِمُونَ بِرُءُوسِ الجِبَالِ ، وَيَحْتَمُونَ بِالغَابَاتِ وَالأَدْغَالِ ...

وَشِقُّهَا الآخَرُ « رُومٌ » مَوْتُورُونَ حَاقِدُونَ عَلَىٰ الإِسْلَامِ الَّذِي هَزَمَهُمْ فِي « اليَرْمُوكِ »[1] هَزِيمَةً أَذَلَّتْ

---

(١) اليرموك : إحدىٰ المعارك الفاصلة في التاريخ وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة ، وانتصر فيها المسلمون علىٰ الروم نصراً كبيراً .

مَعَاطِسَهُمْ[1]، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنَ «الشَّامِ، وَفِلَسْطِينَ، وَمِصْرَ» مَطْرُودِينَ مَدْحُورِينَ إِلَىٰ غَيْرِ رَجْعَةٍ.

* * *

وَكَانَ قُوَّادُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كُلَّمَا أَخْضَعُوا قَبِيلَةً مِنْ قَبَائِلِ «الْبَرْبَرِ» ثَارَتْ عَلَيْهِمُ اثْنَتَانِ...

وَكُلَّمَا رَتَقُوا فَتْقاً[2] انْفَتَحَتْ عَلَيْهِمْ فُتُوقٌ.

ثُمَّ زَادَ الطِّينَ بَلَّةً ظُهُورُ المَلِكَةِ الكَاهِنَةِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الكَاهِنَةُ امْرَأَةً شَدِيدَةَ الذَّكَاءِ، عَظِيمَةَ الدَّهَاءِ، قَوِيَّةَ البَأْسِ، مُقَاتِلَةً مِنَ الطِّرَازِ الأَوَّلِ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ فِي جِبَالِ «الأُورَاسِ» مِنْ أَرْضِ «الجَزَائِرِ»، وَبَسَطَتْ نُفُوذَهَا عَلَى القَبَائِلِ «البَرْبَرِيَّةِ» القَاطِنَةِ هُنَاكَ.

فَهَابَهَا «الرُّومَانُ»، وَأَطَاعَهَا «البَرْبَرُ».

---

(١) المعاطس: الأنوف، مفردها معطس.
(٢) رتقوا فتقاً: سدوا ثغرة أو أصلحوا فساداً.

وَقَدْ تَصَدَّتْ لِقَائِدٍ كَبِيرٍ مِنْ قُوَّادِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ[1]، فَأَفْسَدَتْ خُطَطَهُ، وَأَوْقَعَتِ الهَزَائِمَ بِجُيُوشِهِ، وَأَسَرَتِ العَدِيدَ مِنْ جُنُودِهِ...

وَقَدْ جَمَعَتْ رِجَالَهَا مِنَ «البَرْبَرِ» فَخَطَبَتْ فِيهِمْ قَائِلَةً:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا يَبْتَغُونَ مِنْ بِلَادِنَا الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ، وَيُرِيدُونَ احْتِلَالَ الْمُدُنِ...

وَنَحْنُ لَا نَبْغِي إِلَّا المَرَاعِيَ لِدَوَابِّنَا وَالمَزَارِعَ لِأَقْوَاتِنَا.

وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نُخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَ إِفْرِيقِيَّةَ كُلَّهَا، وَأَنْ نَجْعَلَهَا قَاعاً صَفْصَفاً؛ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَنِيسٌ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِهَا سَامِرٌ مِنْ قَبْلُ.

فَإِذَا رَآهَا الْمُسْلِمُونَ كَذَلِكَ يَئِسُوا مِنْهَا، وَوَلَّوْا مُعْرِضِينَ عَنْهَا، وَلَمْ يُفَكِّرُوا فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهَا أَبَدَ الدَّهْرِ.

---

(١) حسان بن النعمان: قائد غساني، توفي بعد سنة ٨٦هـ - ٧٠٥م.

فَانْصَاعَ لَهَا أَتْبَاعُهَا، وَجَعَلُوا يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ.

* * *

وَلَقَدْ طَفِقَتْ تَجْمَعُ لِلْمُسْلِمِينَ العَسْكَرَ تِلْوَ العَسْكَرِ، وَتُجَنِّدُ لَهُمُ الكَتَائِبَ بَعْدَ الكَتَائِبِ، حَتَّىٰ كَتَبَ حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ إِلَىٰ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عَبْدِ المَلِكِ ابْنِ مَرْوَانَ كِتَاباً جَاءَ فِيهِ:

«إِنَّ أُمَمَ المَغْرِبِ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ، وَلَيْسَ فِي وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يَقِفَ لَهَا عَلَىٰ نِهَايَةٍ».

* * *

وَفِي ذَاتِ مَعْرَكَةٍ مِنَ المَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا الْمُسْلِمُونَ مَعَهَا؛ انْتَصَرَتْ عَلَىٰ حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ نَصْراً كَبِيراً، وَقَتَلَتْ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ خَلْقاً كَثِيراً، وَأَسَرَتْ ثَمَانِينَ رَجُلاً مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ.

فَلَمَّا صَارُوا فِي يَدَيْهَا... عَظَّمَتْ شَأْنَهُمْ، وَأَحْسَنَتْ مُعَامَلَتَهُمْ، وَأَكْرَمَتْ إِقَامَتَهُمْ... ثُمَّ أَطْلَقَتْ

سَرَاحَهُمْ جَمِيعاً مُعَزَّزِينَ مُوَقَّرِينَ ... وَاسْتَبْقَتْ وَاحِداً مِنْهُمْ مِنْ بَنِي «عَبْسٍ» يُقَالُ لَهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ .

فَتَبَنَّتْهُ ، وَضَمَّتْهُ إِلَىٰ أَوْلَادِهَا ، وَبَالَغَتْ فِي إِكْرَامِهِ ، وَأَغْدَقَتْ(١) عَلَيْهِ الخَيْرَ إِغْدَاقاً ...

وَكَانَ غَرَضُهَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَمِيلَ قَلْبَهُ إِلَيْهَا ، وَأَنْ تَجْعَلَهُ عَيْناً(٢) لَهَا عَلَىٰ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَدَلِيلاً يَدُلُّهَا عَلَىٰ مَكَامِنِ الضَّعْفِ فِيهِمْ .

* * *

وَلَكِنَّ خَالِداً بَدَلاً مِنْ أَنْ يَكُونَ عَيْناً لَهَا عَلَىٰ قَوْمِهِ ، كَانَ عَيْناً لِقَوْمِهِ عَلَيْهَا .

ذَلِكَ أَنَّ حَسَّانَ بْنَ النُّعْمَانِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولاً مُتَنَكِّراً ، وَقَالَ لَهُ :

اكْتُبْ إِلَيْنَا بِأَخْبَارِ الكَاهِنَةِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ خَالِدٌ رُقْعَةً جَاءَ فِيهَا :

---

(١) أغدقت : أكثرت وأجزلت. (٢) عيناً لها : جاسوساً لها .

« إِنَّ البَرْبَرَ قَوْمٌ مُتَفَرِّقُونَ لَا نِظَامَ لَهُمْ ، وَلَا رَأْيَ عِنْدَهُمْ ...

فَاطْوُوا المَرَاحِلَ إِلَيْهِمْ طَيًّا ، وَأَعِيدُوا الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الكَرَّةِ يَكْتُبِ اللَّهُ لَكُمُ النَّصْرَ » .

ثُمَّ وَضَعَ الرُّقْعَةَ فِي جَوْفِ قِطْعَةٍ مِنْ خُبْزِ المَلَّةِ[1] ، وَجَعَلَ الخُبْزَةَ فِي رَحْلِ الرَّسُولِ ، وَأَمَرَهُ بِالعَوْدَةِ إِلَىٰ قَائِدِهِ حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ .

* * *

لَمْ يَكَدِ الرَّسُولُ يَبْتَعِدُ عَنْ دِيَارِ المَلِكَةِ الكَاهِنَةِ حَتَّىٰ شَعَرَتْ بِالأَمْرِ ... فَخَرَجَتْ نَاشِرَةً شَعْرَهَا ؛ وَهِيَ تُنَادِي بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَعَظَائِمِ الأُمُورِ ، وَتَقُولُ :

يَا مَعْشَرَ « البَرْبَرِ » ، لَقَدْ ذَهَبَ مُلْكُكُمْ بِذَهَابِ ذَلِكَ العَرَبِيِّ .

فَهَبَّ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالشُّيُوخُ وَالشُّبَّانُ ؛ يَقْتَفُونَ

---

(١) المَلَّة : الرمل الحار يخبز عليه .

آثَارَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَسُدُّونَ عَلَيْهِ أَفْوَاهَ الطُّرُقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... فَلَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلاً .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ مَضَارِبَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ دَخَلَ عَلَىٰ حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ بِالْخُبْزَةِ ، فَفَتَحَهَا ...

فَوَجَدَ أَنَّ حَرَارَةَ الرَّغِيفِ قَدْ أَفْسَدَتْهَا وَمَحَتْ مَعَالِمَهَا وَذَهَبَتْ بِحُرُوفِهَا ، فَلَمْ يَفْهَمْ مِنْهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً .

* * *

فِي هَذِهِ الأَثْنَاءِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الشَّمَالُ الإِفْرِيقِيُّ يَمُورُ(١) بِالقَلَقِ وَالاِضْطِرَابِ ، وَيَقَعُ تَحْتَ مِطْرَقَةِ « الرُّومِ » وَسِنْدَانِ « البَرْبَرِ » .

وَيُعَانِي فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ انْتِفَاضَاتِ المُعَاهَدِينَ(٢)، وَارْتِدَادِ بَعْضِ القَبَائِلِ الَّتِي أَسْلَمَ لِسَانُهَا وَلَمْ يُؤْمِنْ قَلْبُهَا ...

---

(١) يمور : يموج ويضطرب .

(٢) المعاهدين : هم غير المسلمين الذين بينهم وبين المسلمين عهد يجب الوفاء به .

فِي هَذِهِ الأَثْنَاءِ ، الْتَقَىٰ أَمِيرُ « مِصْرَ » عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بِأَخِيهِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي أَنْ يَعْزِلَ حَسَّانَ بْنَ النُّعْمَانِ عَنْ إِمْرَةِ الجُيُوشِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ ، وَأَنْ يُلْقِيَ هَذَا العِبْءَ الثَّقِيلَ عَلَىٰ كَاهِلِ صَدِيقِهِ وَمُشِيرِهِ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ .

فَلَمْ يَرْتَحْ عَبْدُ المَلِكِ لِذَلِكَ التَّدْبِيرِ ؛ لِعَظِيمِ ثِقَتِهِ بِقَائِدِهِ حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ ... لَكِنَّ أَمِيرَ « مِصْرَ » أَصَرَّ عَلَىٰ طَلَبِهِ ، وَوَقَفَ عِنْدَهُ وَاسْتَمْسَكَ بِهِ .

فَلَمْ يَلْبَثْ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ أَنِ اسْتَجَابَ لَهُ ، لَا إِيثَاراً لِمُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ عَلَىٰ حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ ، وَإِنَّمَا مَرْضَاةً لِأَخِيهِ .

* * *

مَا كَادَ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ يَتَلَقَّىٰ أَمْرَ الخَلِيفَةِ بِتَوْلِيَتِهِ عَلَىٰ الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ حَتَّىٰ وَجَّهَ وَجْهَهُ شَطْرَ[1] « القَيْرَوَانِ » قَاعِدَةِ الْمُسْلِمِينَ العَسْكَرِيَّةِ ...

(١) وجه شطر: سار إلى ناحية القيروان .

وَقَدْ عَقَدَ العَزْمَ عَلَىٰ أَلَّا يُضِيعَ هَذِهِ الفُرْصَةَ الَّتِي أُتِيحَتْ لَهُ ، وَأَنْ يُنْجِزَ مَا عَجَزَ أَسْلَافُهُ عَنْ إِنْجَازِهِ .

فَمَا إِنْ بَلَغَ « القَيْرَوَانَ » ؛ حَتَّىٰ جَمَعَ قَادَةَ الجُنْدِ وَوُجُوهَ القَوْمِ وَعَامَّةَ النَّاسِ ، وَخَاطَبَهُمْ بِبَيَانِهِ السَّاحِرِ وَمَنْطِقِهِ الآسِرِ ، وَعَوَاطِفِهِ المُؤْمِنَةِ الجَيَّاشَةِ فَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا قَالَهُ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ كَأَحَدِكُمْ ، فَمَنْ رَأَىٰ مِنِّي حَسَنَةً فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ ، وَلَيَعْلَمْ أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا .

وَمَنْ رَأَىٰ مِنِّي سَيِّئَةً فَلْيُنْكِرْهَا[١] وَلْيَعْلَمْ أَنِّي أُخْطِئُ كَمَا تُخْطِئُونَ وَأُصِيبُ كَمَا تُصِيبُونَ .

وَقَدْ أَمَرَ وَالِيكُمْ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَعَزَّهُ اللَّهُ بِأَنْ تُدْفَعَ إِلَيْكُمْ عَطَايَاكُمْ[٢] مُضَاعَفَةً ثَلَاثاً ، فَخُذُوهَا هَنِيئًا مَرِيئًا .

---

(١) فلينكرها : فليدل عليها ، ويؤاخذني بها .
(٢) عطاياكم : رواتبكم التي تستحقونها من بيت المال .

وَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ فَلْيَرْفَعْهَا إِلَيْنَا ...

وَلَهُ عَلَيْنَا قَضَاؤُهَا عَلَىٰ مَا عَزَّ وَهَانَ، مَعَ الْمُوَاسَاةِ[١] لِصَاحِبِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَلَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَبِهِ أَسْتَعِينُ.

* * *

ثُمَّ مَضَىٰ مِنْ تَوِّهِ[٢] إِلَىٰ وَضْعِ خُطَطِهِ وَإِعْدَادِ جُيُوشِهِ، وَتَكْتِيبِ كَتَائِبِهِ، وَتَسْمِيَةِ قُوَّادِهِ.

فَحَرَصَ أَشَدَّ الحِرْصِ أَنْ يَجْعَلَ فِي كُلِّ كَتِيبَةٍ مُقَاتِلِينَ خَاضُوا المَعَارِكَ فِي الشَّمَالِ الإِفْرِيقِيِّ نَفْسِهِ، وَعَرَفُوا مَدَاخِلَهُ وَمَخَارِجَهُ ...

وَوَقَفُوا عَلَىٰ مَكَايِدِ الأَعْدَاءِ، وَحَذَقُوا أَسَالِيبَهُمْ فِي القِتَالِ.

وَقَرَّرَ أَنْ يُسْنِدَ القِيَادَاتِ إِلَىٰ ذَوِي الحَمِيَّةِ وَالطَّاعَةِ

---

(١) المواساة: التخفيف والتيسير وزيادة المعونة.

(٢) توه: في اللحظة نفسها، وعلىٰ الفور.

وَالذَّكَاءِ ؛ مِمَّنْ جَاوَزُوا طَيْشَ الشَّبَابِ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دَعَةِ[1] الكُهُولِ .

وَأَنْ يَجْعَلَ أَوْلَادَهُ فِي جُمْلَةِ قُوَّادِهِ فَهُمْ أَكْثَرُ حِمَيَّةً[2] لَهُ ، وَأَشَدُّ طَاعَةً لِأَوَامِرِهِ ، وَأَعْظَمُ ثِقَةً بِرَأْيِهِ ...

وَأَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِمْ أَبْنَاءَ الشُّهَدَاءِ لِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الوَفَاءِ لِآبَائِهِمُ الَّذِينَ ثَوَوْا تَحْتَ كُثْبَانِ الرِّمَالِ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ شُهَدَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَعَقَدَ أَرْبَعَةً مِنْ أَلْوِيَتِهِ لِأَرْبَعَةٍ مِنْ أَوْلَادِهِ هُمْ : عَبْدُ اللَّهِ ، وَمَرْوَانُ ، وَعَبْدُ المَلِكِ ، وَعَبْدُ العَزِيزِ .

وَعَقَدَ ثَلَاثَةً أُخْرَىٰ لِثَلَاثَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ وَهُمْ : عِيَاضٌ ، وَعُثْمَانُ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ .

وَعَقَدَ أَلْوِيَةً غَيْرَهَا لِطَائِفَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ البِلَادِ أَسْلَمُوا طَائِعِينَ ، وَآمَنُوا مُخْتَارِينَ ، وَغَدَا الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ

---

(١) الدعة : العيش الهادئ .

(٢) أكثر حمية له : أكثر غضباً وعصبية والتفافاً حوله .

نُفُوسِهِمْ الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِهِمْ، وَفِي طَلِيعَتِهِمْ مَوْلَاهُ[١] طَارِقُ ابْنُ زِيَادٍ.

* * *

ثُمَّ جَمَعَ قَادَةَ الجُنْدِ، وَعُرَفَاءَ الكَتَائِبِ، وَوُجُوهَ العَسْكَرِ وَخَطَبَهُمْ قَائِلاً:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا كَانَ قَبْلِي عَلَىٰ إِفْرِيقِيَّةَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا مُسَالِمٌ يُؤْثِرُ العَافِيَةَ وَيَكْرَهُ أَنْ يُكْلَمَ[٢]، وَيُحِبُّ أَنْ يَسْلَمَ...

وَإِمَّا رَجُلٌ ضَعِيفُ الخِبْرَةِ قَلِيلُ المَعْرِفَةِ بِفُنُونِ الحَرْبِ.

وَلَيْسَ أَخُو الحَرْبِ إِلَّا مَنِ اكْتَحَلَ السَّهَرَ، وَأَحْسَنَ النَّظَرَ، وَخَاضَ الْغَمَرَاتِ[٣]، وَسَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ حَتَّىٰ يُبْلِغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا فِي غَيْرِ خَرَقٍ[٤] يُرْدِيهِ وَلَا عُنْفٍ يُقَاسِيهِ.

(١) مولاه: تابعه الذي كان رقيقاً له وأعتقه.
(٢) يُكلم: يجرح.
(٣) الغمرات: الغمرة هي لجة البحر، أي المخاطر.
(٤) الخرق: الإسراف.

عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مُتَوَكِّلاً فِي حَزْمٍ ، حَازِماً فِي عَزْمٍ ، مُسْتَزِيداً مِنَ المَعْرِفَةِ ، مُسْتَشِيراً لِأَهْلِ الرَّأْيِ ، مُتَحَنِّكاً بِتَجَارِبِهِ ، لَيْسَ بِالمُتَجَابِنِ[1] إِقْحَاماً وَلَا بِالمُتَخَاذِلِ إِحْجَاماً[2].

إِنْ ظَفِرَ لَمْ يَزِدْهُ الظَّفَرُ إِلَّا حَذَراً ، وَإِنْ خَسِرَ لَمْ تَزِدْهُ الخَسَارَةُ إِلَّا جَلَادَةً وَصَبْراً ، رَاجِياً مِنَ اللّٰهِ حُسْنَ العَاقِبَةِ . . .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلِي كَانَ يَعْمَدُ إِلَىٰ العَدُوِّ الأَقْصَىٰ[3] وَيَتْرُكُ العَدُوَّ الأَدْنَىٰ[4]، فَيَنْتَهِزُ مِنْهُ الفُرْصَةَ وَيَدُلُّ أَعْدَاءَهُ عَلَىٰ العَوْرَةِ ، وَيَكُونُ عَوْناً عَلَيْهِ عِنْدَ النَّكْبَةِ[5].

وَإِنِّي ـ وَاللّٰهِ ـ لَنْ أَبْرَحَ هَذِهِ القِلَاعَ المُمَرَّدَةَ[6]

---

(١) المتجابن : المتخاذل المتأخر عن الصفوف .
(٢) الإحجام : التردد وكراهة الإقبال علىٰ الأمر .
(٣) الأقصىٰ : الأبعد .
(٤) الأدنىٰ : الأقرب .
(٥) النكبة : المصيبة .
(٦) الممردة : المشيدة المرتفعة .

وَالجِبَالَ الْمُمَنَّعَةَ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهَا ، حَتَّىٰ يَضَعَ اللَّهُ أَرْفَعَهَا[١] وَيُذِلَّ أَمْنَعَهَا ، وَيَفْتَحَهَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فَتْحاً مُبِيناً ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ .

* * *

ثُمَّ أَطْلَقَ كَتَائِبَهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي اتِّجَاهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ حَدَّدَ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ قَبِيلَةً مِنَ القَبَائِلِ الثَّائِرَةِ ، أَوْ عِصَابَةً مِنَ العِصَابَاتِ النَّاكِثَةِ[٢] الغَادِرَةِ ، أَوْ قَلْعَةً مِنَ القِلَاعِ المُسْتَعْصِيَةِ .

فَأَفَاقَتْ إِفْرِيقِيَّةُ ذَاتَ صَبَاحٍ ، فَإِذَا بِالأَرْضِ تَتَزَلْزَلُ تَحْتَ أَقْدَامِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ...

وَشَعَرَ « الرُّومُ » وَ« البَرْبَرُ » مَعاً ، أَنَّ دَماً جَدِيداً سَرَىٰ فِي عُرُوقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَزْماً عَتِيداً نَبَضَ فِي أَعْصَابِهِمْ ، وَقِيَادَةً حَازِمَةً أَحْكَمَتْ أَمْرَهُمْ .

وَقَدْ شَغَلَتْهُمُ الجَائِحَةُ[٣] الَّتِي عَمَّتْهُمْ جَمِيعاً عَنْ أَنْ

---

(١) أرفعها : أعلاها .

(٢) الناكثة : الناقضة للعهود والمواثيق . (٣) الجائحة : المصيبة .

يَنْصُرَ الحَلِيفُ حَلِيفَهُ ، أَوْ أَنْ يُعِينَ الأَخُ أَخَاهُ ...

فَلِكُلِّ قَبِيلَةٍ يَوْمَئِذٍ خَطْبٌ يُرْدِيهَا ، وَشَأْنٌ يُغْنِيهَا .

وَكَانَ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ مُوَزَّعاً عَلَىٰ القِيَادَاتِ كُلِّهَا ، مُتَّصِلاً بِهَا جَمِيعِهَا ، وَلَا تَفُوتُهُ حَرَكَةٌ مِنْ حَرَكَاتِهَا ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ تَصَرُّفٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِهَا .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ أَخَذَتْ تَتَوَالَىٰ الِانْتِصَارَاتُ ، وَتَتَسَاقَطُ الحُصُونُ ، وَتَسْتَسْلِمُ القَبَائِلُ ، وَتُسَاقُ الغَنَائِمُ تِلْوَ الغَنَائِمِ ؛ عَلَىٰ وَجْهٍ فَاقَ خَيَالَ المُتَخَيِّلِينَ وَجَاوَزَ حِسَابَ الحَاسِبِينَ ...

* * *

وَمَضَىٰ المُبَشِّرُونَ مِنَ « القَيْرَوَانِ » فِي « المَغْرِبِ » إِلَىٰ « الفُسْطَاطِ » فِي « مِصْرَ » يَحْمِلُونَ إِلَىٰ أَمِيرِهَا عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ أَخْبَارَ النَّصْرِ الكَبِيرِ .

فَمَا إِنْ تَلَقَّىٰ الأَمِيرُ بِشَارَتَهُمْ حَتَّىٰ خَرَّ سَاجِداً شُكْراً لِلَّهِ وَاهِبِ النَّصْرِ .

وَكَانَ المُبَشِّرُونَ يَحْمِلُونَ إِلَىٰ أَمِيرِ « مِصْرَ » كِتَاباً مِنْ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ يُثَبِّتُ لَهُ فِيهِ مَا نَقَلَهُ الرِّجَالُ مِنْ أَخْبَارٍ .

وَمَعَ الكِتَابِ بَيَانٌ بِنَصِيبِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الغَنَائِمِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا البَيَانِ أَنَّ حِصَّةَ بَيْتِ المَالِ مِنَ الرَّقِيقِ قَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفاً .

فَلَمَّا هَمَّ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بِإِرْسَالِ كِتَابِ مُوسَىٰ ابْنِ نُصَيْرٍ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ فِي « دِمَشْقَ » ؛ اسْتَكْثَرَ هَذَا العَدَدَ ، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ كَاتِبُ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ قَدْ زَلَّ[1] قَلَمُهُ أَوْ أَخْطَأَ حِسَابُهُ ؛ فَزَادَ فِي عَدَدِ الرَّقِيقِ زِيَادَةً لَا يُصَدِّقُهَا العَقْلُ ، وَأَلْزَمَ مُوسَىٰ أَمَامَ دَارِ الخِلَافَةِ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ الوَفَاءَ بِهِ ...

فَأَرْسَل إِلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ كِتَاباً قَالَ فِيهِ :

« لَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانِكَ أَنَّ حِصَّةَ بَيْتِ المَالِ مِنَ

---

(١) زل : تعثر وأخطأ القصد .

السَّبْيِ قَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفاً .

وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ غَنِيمَتُكُمْ قَدْ بَلَغَتْ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفاً مِنَ الرَّقِيقِ .

وَلَعَلَّ كَاتِبَكَ قَدْ أَدْرَكَهُ السَّهْوُ أَوْ فَاتَهُ أَنَّ حِصَّةَ بَيْتِ الْمَالِ إِنَّمَا هِيَ الْخُمْسُ مِمَّا أَفَاءَ[1] اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَا أَكْثَرَ » .

فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ الرِّسَالَةَ ؛ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ يَقُولُ :

« حَقًّا لَقَدْ سَهَا الْكَاتِبُ وَزَلَّ قَلَمُهُ ...

فَحِصَّةُ بَيْتِ الْمَالِ مِنَ الرَّقِيقِ لَيْسَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفاً وَإِنَّمَا هِيَ سِتُّونَ أَلْفاً .

فَإِذَا بَعَثْتُمْ مَنْ يَقْبِضُهَا لَكُمْ دَفَعْنَاهَا إِلَيْهِ ، وَزِدْنَاهُ أَلْفاً هَدِيَّةً مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى خَلِيفَتِهِمْ فِي الشَّامِ » .

فَبَعَثَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ

---

(١) أفاء : أعطى وأنعم .

بِرِسَالَةِ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ وَكَتَبَ لَهُ مَعَ الرِّسَالَةِ كِتَاباً جَاءَ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - فِي شَأْنِ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ وَحَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ كَمُتَرَاهِنَيْنِ أَرْسَلَا فَرَسَيْهِمَا إِلَىٰ غَايَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَسَبَقَ أَحَدُهُمَا إِلَىٰ الغَايَةِ .

وَإِنَّ لَكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عِنْدَ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ الْمَزِيدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ .

وَقَدْ جَاءَنِي - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - كِتَابٌ مِنْ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ ، وَقَدْ وَجَّهْتُهُ إِلَيْكَ لِتَقْرَأَهُ بِنَفْسِكَ ، وَتَحْمَدَ اللَّهَ عَلَيْهِ . . .

وَالسَّلَامُ .

* * *

وَلَقَدْ عَمَّتْ فَرْحَةُ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ الكَبِيرِ مَشَارِقَ الأَرْضِ .

غَيْرَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَحْرَزُوا النَّصْرَ العَظِيمَ كَانُوا فِي شُغُلٍ شَاغِلٍ عَنْ نَصْرِهِمْ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ إِقْلِيمَ إِفْرِيقِيَّةَ كَانَ قَدِ انْحَبَسَ عَنْهُ الغَيْثُ(١) لِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ فَأَصَابَهُ الجَفَافُ، وَنَزَلَ بِهِ القَحْطُ، وَحَاقَ بِهِ الفَقْرُ، وَنَدَرَتْ فِيهِ الأَقْوَاتُ، وَارْتَفَعَتْ عَلَىٰ سُكَّانِهِ الأَسْعَارُ بَعْدَ أَنْ هَلَكَ الزَّرْعُ وَجَفَّ الضَّرْعُ.

فَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ سَبِيلاً إِلَىٰ كَشْفِ هَذَا الضُّرِّ غَيْرَ اللُّجُوءِ إِلَىٰ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ.

فَأَمَرَ النَّاسَ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ ...

وَحَضَّهُمْ عَلَىٰ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ...

وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ إِصْلَاحِ دَخَائِلِ نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ تَتَطَهَّرَ قُلُوبُهُمْ بِالتَّوْبَةِ، وَتَزْكُوَ أَفْئِدَتُهُمْ بِالطَّاعَةِ، وَتَطْهُرَ أَنْفَاسُهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ.

* * *

(١) الغيث: المطر الذي يغيث الناس.

ثُمَّ خَرَجَ بِالنَّاسِ ... كُلِّ النَّاسِ إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ، شِيباً وَشُبَّاناً، وَفَتَيَاتٍ وَوِلْدَاناً، وَرِجَالاً وَنِسَاءً.

وَأَخْرَجَ مَعَ النَّاسِ الْبَهَائِمَ؛ وَقَدْ هُزِلَتْ أَجْسَادُهَا وَلَصِقَتْ بُطُونُهَا بِظُهُورِهَا، وَكَفَّتْ ضُرُوعُهَا عَنِ الدَّرِّ.

وَفَرَّقَ بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَصِغَارِهَا مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ، وَأَقَامَ بَيْنَهُمَا فَاصِلاً.

فَتَعَالَىٰ بُكَاءُ الْأُمَّهَاتِ، وَاشْتَدَّ صُرَاخُ الْأَطْفَالِ، وَثُغَاءُ الْمَوَاشِي ...

وَارْتَفَعَ الضَّجِيجُ وَالْعَجِيجُ حَتَّىٰ بَدَا الْجَمِيعُ وَكَأَنَّهُمْ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ.

وَأَقَامَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَهُمْ يَبْتَهِلُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ حَتَّىٰ انْتَصَفَ النَّهَارُ.

ثُمَّ نَهَضَ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ إِلَىٰ الصَّلَاةِ خَاشِعَ الْقَلْبِ، مُنَكَّسَ الرَّأْسِ، دَامِعَ الْعَيْنَيْنِ.

وَصَلَّىٰ فِي النَّاسِ فِي خُضُوعٍ وَذِلَّةٍ وَانْكِسَارٍ.

ثُمَّ خَطَبَ بِهِمْ خُطْبَةً مُجَلَّلَةً بِالإِسْتِغْفَارِ مُكَلَّلَةً بِالدُّعَاءِ... غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي الخُطْبَةِ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَدْعُ لَهُ كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ العَادَةُ.

فَإِذَا صَوْتٌ يَرْتَفِعُ مِنْ وَرَاءِ الصُّفُوفِ قَائِلاً:

أَلَا تَذْكُرُ فِي هَذَا المَقَامِ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَا بْنَ نُصَيْرٍ؟!.

فَرَدَّ مُوسَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِ الصَّوْتِ قَائِلاً:

هَذَا مَقَامٌ لَا يُذْكَرُ فِيهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يُرْفَعُ فِيهِ سِوَىٰ اسْمِهِ، وَقَدْ وَعَدَنَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ أَنْ يُجِيبَ دُعَاءَنَا فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

* * *

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّىٰ هَبَّتِ الرِّيَاحُ البَارِدَةُ،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

وَامْتَلأَ الجَوُّ بِالسَّحَابِ المُمْطِرِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ السَّمَاءَ عَلَىٰ الأَرْضِ مِدْرَاراً[1]...

فَرُوِيَتِ الأَكْبَادُ العَطْشَىٰ...

ثُمَّ نَبَتَ الزَّرْعُ، وَحَفَلَ الضَّرْعُ...

وَقَرَّتِ العُيُونُ، وَاطْمَأَنَّتِ القُلُوبُ.

---

(١) مدراراً: مطراً لا ينقطع نفعه، وتؤمن مخاطره.

بَيْتُ الحِكْمَةِ

تَرْوِي كُتُبُ التَّارِيخِ العَرَبِيَّةُ وَالأَجْنَبِيَّةُ أَنَّ « لُذَرِيقَ » قَائِدَ الجُيُوشِ « الإِسْبَانِيَةِ » حِينَ ثَارَ عَلَىٰ مَلِكِ البِلَادِ « غَيْطَشَةَ » وَانْتَزَعَ مِنْهُ عَرْشَهُ، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ مَلِكاً عَلَىٰ « القُوطِ » ... طَفِقَ يَعِيثُ فِي البِلَادِ فَسَاداً، وَيَجْتَرِحُ(١) - بِسَبَبِ نَزَقِهِ وَطَيْشِهِ وَعُنْجُهِيَّتِهِ - الكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيَعْتَدِي عَلَىٰ الحُقُوقِ وَالحُرُمَاتِ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَا اجْتَرَحَهُ عُدْوَانُهُ عَلَىٰ « بَيْتِ الحِكْمَةِ » ...

وَبَيْتُ الحِكْمَةِ هَذَا بِنَاءٌ مُقَدَّسٌ عِنْدَ « القُوطِ » بَنَاهُ قُدَمَاءُ مُلُوكِهِمْ، وَطَوَّقَهُ الشَّعْبُ عَبْرَ التَّارِيخِ بِكَثِيرٍ مِنَ الأَسْرَارِ، وَنَسَجَ حَوْلَهُ عَدِيداً مِنَ الأَسَاطِيرِ وَالأَخْبَارِ، وَوَشَّحَهُ بِغِلَالَةٍ مِنَ الغُمُوضِ، وَأَحَاطَهُ بِهَالَةٍ مِنَ الهَيْبَةِ وَالتَّوْقِيرِ ...

---

(١) يجترح: يقترف.

وَلَقَدْ أُقْفِلَ « بَيْتُ الحِكْمَةِ » هَذَا مُنْذُ تَمَّ بِنَاؤُهُ فِي التَّارِيخِ السَّحِيقِ(١)، وَظَلَّ مُقْفَلاً عَلَىٰ مَرِّ السِّنِينَ.

فَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَا الَّذِي يُكِنُّهُ(٢) بَيْنَ جُدْرَانِهِ، أَوْ يَحْفَظُهُ تَحْتَ سَقْفِهِ.

وَكَانَ كُلَّمَا اعْتَلَىٰ عَرْشَ « الإِسْبَانِ » مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ؛ مَضَىٰ إِلَىٰ بَيْتِ الحِكْمَةِ هَذَا، وَأَضَافَ إِلَىٰ أَقْفَالِهِ السَّابِقَةِ قُفْلاً جَدِيداً.

حَتَّىٰ بَلَغَتِ الأَقْفَالُ الَّتِي تُطَوِّقُ بَابَهُ سَبْعَةً وَعِشْرِينَ قُفْلاً، وَضَعَهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكاً.

وَكَانَ يَقُومُ عَلَىٰ سِدَانَةِ(٣) هَذَا البَيْتِ طَائِفَةٌ مِنْ ثِقَاتِ الرِّجَالِ مِمَّنْ عُرِفُوا بِالشَّرَفِ وَالأَمَانَةِ وَالحَزْمِ...

وَكَانُوا كُلَّمَا خَلَا مِنْهُمْ سَيِّدٌ بِسَبَبِ الوَفَاةِ قَامَ مَقَامَهُ سَيِّدٌ آخَرُ...

---

(١) التاريخ السحيق: البعيد العميق.

(٢) يكنه: يستره ويخفيه.

(٣) سِدَانَةُ البيت: خدمته والقيام بشئونه.

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الأَمْرُ لِلُذَرِيقَ؛ جَاءَهُ سَدَنَةُ «بَيْتِ الحِكْمَةِ» وَسَأَلُوهُ أَنْ يُحَدِّدَ يَوْماً يَزُورُ فِيهِ البَيْتَ، وَيُضِيفُ إِلَىٰ أَقْفَالِهِ قُفْلاً جَدِيداً جَرْياً عَلَىٰ سُنَّةِ المُلُوكِ الغَابِرِينَ...

فَمَا كَانَ مِنْ «لُذَرِيقَ» إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُمْ:

لَسْتُ بِفَاعِلٍ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا فَتَحْتُ بَابَ هَذَا البَيْتِ، وَعَرَفْتُ مَا الَّذِي يُخَبِّئُهُ فِي أَحْشَائِهِ.

فَقَالُوا:

أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ المُلُوكِ لَمْ يَجْتَرِئْ عَلَىٰ فَضِّ أَقْفَالِ هَذَا المَكَانِ المُقَدَّسِ، وَلَمْ تُحَدِّثْهُ نَفْسُهُ بِفَتْحِ أَبْوَابِهِ...

وَإِنَّ مَا تَوَارَثْنَاهُ مِنْ أَخْبَارٍ يُحَذِّرُنَا مِنْ هَتْكِ حِجَابِهِ وَكَشْفِ أَسْرَارِهِ، وَيُنْذِرُنَا بِالشَّرِّ المُسْتَطِيرِ إِذَا نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ.

فَقَالَ: لَا بُدَّ لِي مِنْ فَتْحِهِ، وَلْيَكُنْ مَا يَكُونُ...

وَسَرَىٰ خَبَرُ عَزْمِ «لُذَرِيقَ» عَلَىٰ فَتْحِ أَبْوَابِ «بَيْتِ

الحِكْمَةِ » فِي طُولِ البِلَادِ وَعَرْضِهَا ؛ كَمَا تَسْرِي النَّارُ فِي الهَشِيمِ[1].

وَأَشْفَقَ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الفَعْلَةِ الكَبِيرَةِ الَّتِي أَرَادَ « لُذَرِيقُ » أَنْ يَبُوءَ[2] بِإِثْمِهَا.

فَمَشَىٰ إِلَيْهِ عِلْيَةُ القَوْمِ، وَوُجُوهُ البِلَادِ ضَارِعِينَ رَاجِينَ ... فَرَدَّهُمْ كَاسِفِينَ مَحْزُونِينَ، وَأَعْلَنَ لَهُمْ إِصْرَارَهُ عَلَىٰ إِنْفَاذِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ مَضَىٰ « لُذَرِيقُ » فِي كَوْكَبَةٍ مِنْ قَادَةِ جَيْشِهِ، وَرِجَالِ حَاشِيَتِهِ إِلَىٰ « بَيْتِ الحِكْمَةِ »، وَفَضَّ أَقْفَالَهُ السَّبْعَةَ وَالعِشْرِينَ، وَفَتَحَ بَابَهُ الكَبِيرَ الَّذِي مَا امْتَدَّتْ إِلَيْهِ يَدٌ مُنْذُ أُغْلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...

وَاقْتَحَمَ البَيْتَ بِمَنْ مَعَهُ ؛ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّ فِيهِ كَنْزاً مِنْ كُنُوزِ القُرُونِ الخَالِيَةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِ غَيْرَ صُنْدُوقٍ مُقْفَلٍ ...

---

(١) الهشيم : النبات اليابس. (٢) يبوء بإثمها : يتحمل عاقبة ذنبه.

فَأَمَرَ بِفَضِّ قُفْلِهِ ... فَتَوَجَّسَ[1] رِجَالُهُ خِيفَةً مِنْ فَتْحِ الصُّنْدُوقِ، وَارْتَعَدَتْ أَفْئِدَتُهُمْ خَشْيَةً مِنْ ذَلِكَ.

غَيْرَ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ أَذْعَنُوا[2] لِأَمْرِهِ، وَفَتَحُوهُ تَحْتَ وَطْأَةِ إِصْرَارِهِ.

فَإِذَا فِيهِ خَرِيطَةٌ مُدْرَجَةٌ فِي إِحْكَامٍ.

فَلَمَّا نَشَرُوهَا وَجَدُوا فِيهَا صُوَراً لِرِجَالٍ يَلْبَسُونَ العَبَاءَاتِ، وَيَعْتَجِرُونَ[3] العَمَائِمَ؛ قَدِ امْتَطَوْا مُتُونَ الخُيُولِ العِرَابِ ...

وَتَقَلَّدُوا السُّيُوفَ المُرْهَفَةَ، وَتَنَكَّبُوا القِسِيَّ المُحْكَمَةَ، وَرَفَعُوا الرَّايَاتِ فَوْقَ الرِّمَاحِ ...

وَقَدْ وَجَدُوا فِي أَعْلَى الخَرِيطَةِ سَطْراً مَكْتُوباً بِلُغَةٍ قَدِيمَةٍ ...

فَاسْتَحْضَرُوا أَهْلَ العِلْمِ لِقِرَاءَةِ ذَلِكَ السَّطْرِ، فَإِذَا فِيهِ:

---

(١) فتوجس خيفة: شعر بالخوف.

(٢) أذعنوا: أطاعوا وانقادوا. (٣) يعتجرون العمائم: يلفون العمائم.

« إِذَا كُسِرَتِ الأَقْفَالُ عَنْ هَذَا البَيْتِ ، وَفُتِحَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ ، وَاطَّلَعَ أَحَدٌ عَلَىٰ الصُّورَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الخَرِيطَةِ ... فَإِنَّ القَوْمَ الَّذِينَ صُوِّرُوا عَلَىٰ صَفْحَتِهَا سَيَفْتَحُونَ البِلَادَ ، وَيُزِيلُونَ مُلْكَ « القُوطِ » ، وَيُقِيمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَرْشاً فِي رُبُوعِهَا ...

فَجَزِعَ « لُذَرِيقُ » لِمَا رَأَىٰ وَمَا سَمِعَ ، وَنَدِمَ عَلَىٰ عِنَادِهِ وَإِصْرَارِهِ .

وَأَمَرَ بِأَنْ تُلْقَىٰ الخَرِيطَةُ فِي الصُّنْدُوقِ ، وَأَنْ يُعَادَ قَفْلُهُ ، وَأَنْ يُوصَدَ بَابُ « بَيْتِ الحِكْمَةِ » ، وَأَنْ تُلْقَىٰ عَلَيْهِ أَقْفَالُهُ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ .

* * *

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ عَنَاصِرَ مِنَ الحَقِيقَةِ وَأُخْرَىٰ لَا تَقِلُّ عَنْهَا مِنَ الخَيَالِ .

فَإِنَّهَا تُصَوِّرُ القَلَقَ العَمِيقَ الَّذِي كَانَ يُخَامِرُ(١)

---

(١) يخامر : يخالط .

نُفُوسَ « القُوطِ » مِنْ جِيرَانِهِمُ الجُدُدِ ...

وَتُعَبِّرُ عَنْ تَرَقُّبِهِمْ لِلْغَزْوَةِ الْكَاسِحَةِ الَّتِي غَدَتْ فِي حُسْبَانِهِمْ أَمْراً لَا رَيْبَ فِيهِ ...

وَتُبْرِزُ جَزَعَهُمُ الشَّدِيدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ بَاتُوا يَتَخَيَّلُونَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيُبْصِرُونَهُمْ فِي كُلِّ صُورَةٍ ، وَيَتَوَقَّعُونَهُمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ .

فَمَا الَّذِي جَعَلَ « القُوطَ » يَعِيشُونَ هَٰذِهِ المَشَاعِرَ الرَّهِيبَةَ المُدَمِّرَةَ ؟!! ...

وَهُمْ قَوْمٌ شَهِدَ لَهُمُ الأَعْدَاءُ قَبْلَ الأَصْدِقَاءِ بِصَلَابَةِ العَزِيمَةِ ، وَقُوَّةِ الشَّكِيمَةِ[1]، وَشِدَّةِ البَأْسِ .

وَعَرَفَتْهُمْ مَيَادِينُ القِتَالِ أَبْطَالاً مُحَارِبِينَ .

وَحَفَلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ بِأَخْبَارِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ إِحْرَازِ النَّصْرِ حِينَ يَعِزُّ النَّصْرُ[2].

---

(١) قوة الشكيمة : الشدة والبأس .

(٢) يعز النصر : يغلو ويصبح بعيد المنال .

إِنَّ السَّبَبَ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ يَرْجِعُ إِلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ الإِسْلَامِ وَشَخْصِيَّةِ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ الفَذَّةِ، وَقُدْرَتِهِ الفَرِيدَةِ عَلَىٰ تَمَثُّلِ هَٰذِهِ العَبْقَرِيَّةِ، وَوَضْعِهَا مَوْضِعَ التَّطْبِيقِ فِي إِفْرِيقِيَّةَ وَالمَغْرِبَيْنِ الأَوْسَطِ وَالأَقْصَىٰ.

فَلَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُقِرَّ فِي نُفُوسِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ سُكَّانِ البِلَادِ المَفْتُوحَةِ أَنَّ العَرَبَ إِخْوَةٌ لَهُمْ فِي الدِّينِ، وَلَيْسُوا كَالرُّومَانِ سَادَةً فَاتِحِينَ.

وَأَنَّهُمْ مَا نَهَدُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَطْنِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ طَمَعاً فِي مَغْنَمٍ مِنْ مَغَانِمِ الدُّنْيَا، أَوْ شَهْوَةً فِي سُلْطَانٍ مِمَّا يَسْعَىٰ إِلَيْهِ الفَاتِحُونَ الَّذِينَ عَرَفَهُمُ التَّارِيخُ.

وَإِنَّمَا جَاءُوهُمْ يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمُ العَقِيدَةَ البَانِيَةَ[1]، وَاليَدَ الحَانِيَةَ، وَالشِّرْعَةَ الَّتِي تُسَاوِي الإِنْسَانَ بِأَخِيهِ الإِنْسَانِ.

* * *

(١) العقيدة البانية: أي الإسلام.

لَقَدْ بَثَّ بَيْنَهُمُ العُلَمَاءَ لِيُفَقِّهُوهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ، وَالقُرَّاءَ لِيُقْرِئُوهُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَالمُحَدِّثِينَ لِيَرْوُوا لَهُمْ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...

فَبَدَا لَهُمُ الفَرْقُ الكَبِيرُ بَيْنَ «الرُّومِ» الَّذِينَ جَاءُوهُمْ مُسْتَعْبِدِينَ مُسْتَغِلِّينَ، وَالمُسْلِمِينَ الَّذِينَ وَفَدُوا عَلَيْهِمْ هُدَاةً مُعَلِّمِينَ.

* * *

وَلَقَدِ اعْتَبَرَ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيْدِي «الرُّومِ» مَفْتُوحَةً حَرْباً؛ فَآلَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى الفَاتِحِينَ.

وَاعْتَبَرَ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ مَفْتُوحَةً صُلْحاً؛ فَبَقِيَتْ فِي أَيْدِي أَصْحَابِهَا مِنْ أَبْنَاءِ البِلَادِ...

فَكَشَفَ لَهُمْ بِذَلِكَ عَنْ زُهْدِ المُسْلِمِينَ بِمَا فِي حَوْزَتِهِمْ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا(١)، وَرَغْبَتِهِمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ.

* * *

(١) عرض الدنيا: متاع الدنيا العارض.

ثُمَّ إِنَّهُ أَشْرَكَهُمْ فِي حَرَكَةِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَضَمَّهُمْ إِلَىٰ دِيوَانِ الجُنْدِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ العَرَبِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ...

فَأَشْعَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ غَدَوْا أَصْحَابَ قَضِيَّةٍ يُدَافِعُونَ عَنْهَا، وَحَمَلَةَ رِسَالَةٍ يُنَاضِلُونَ فِي سَبِيلِ إِبْلَاغِهَا لِلنَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّهُ وَلَّىٰ القِيَادَاتِ وَالإِمَارَاتِ لِلأَصْلَحِ أَيًّا كَانَ جِنْسُهُ...

فَهَذَا قَائِدٌ «بَرْبَرِيٌّ» يَنْضَوِي تَحْتَ لِوَائِهِ عَرَبٌ خُلَّصٌ[1]، فَيَسْمَعُونَ وَيُطِيعُونَ...

وَذَلِكَ قَائِدٌ عَرَبِيٌّ تُعْقَدُ لَهُ الرَّايَةُ عَلَىٰ جُنْدٍ مِنَ «البَرْبَرِ»؛ فَيَجْعَلُونَ نُحُورَهُمْ دُونَ نَحْرِهِ، وَصُدُورَهُمْ وِقَاءً لِصَدْرِهِ.

فَوَجَدُوا فِي ذَلِكَ تَرْجَمَةً صَادِقَةً لِمَا نَادَىٰ بِهِ الإِسْلَامُ مِنْ أَنَّهُ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ

---

(١) عرب خلص: عرب خالصون.

عَلَىٰ عَرَبِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ ...

وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ لِآدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ .

* * *

وَلَقَدْ تَذَوَّقَ « البَرْبَرُ » بِفَضْلِ حَزْمِ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ وَعَزْمِهِ وَحُنْكَتِهِ وَحِكْمَتِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِمْ طَعْمَ الِاسْتِقْرَارِ ، وَسِيَادَةَ النِّظَامِ ، وَانْتِشَارَ الأَمْنِ .

وَأَحَسُّوا بِأَنَّهُمْ سَادَةٌ عَلَىٰ أَرْضِهِمْ ...

أَحْرَارٌ فِي أَوْطَانِهِمْ ... قَادِرُونَ عَلَىٰ الِانْصِرَافِ إِلَىٰ البِنَاءِ وَالإِنْتَاجِ ... بَعْدَ أَنْ عَاشُوا دَهْراً طَوِيلاً فِي خِصَامٍ مَعَ « الرُّومِ » الَّذِينَ انْقَضُّوا عَلَيْهِمْ مِنَ الخَارِجِ .

أَوْ شِقَاقٍ[1] بَيْنَ الأَشِقَّاءِ المُتَنَازِعِينَ المُتَخَاصِمِينَ فِي الدَّاخِلِ .

* * *

وَلَقَدْ وَجَدَ « البَرْبَرُ » فِي شِرْعَةِ الإِسْلَامِ حَلًّا لِمُشْكِلَاتِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ .

---

(١) شقاق : خلاف وانقسام .

وَفِي لُغَةِ القُرْآنِ بَدِيلاً عَنْ لُغَاتِهِمُ العَاجِزَةِ عَنِ الوَفَاءِ بِحَاجَاتِ الحَيَاةِ .

وَكَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ السَّدِيدَةِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ ، أَنْ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً أَفْوَاجاً ...

وَأَكَبُّوا عَلَىٰ حِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ...

وَتَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ فِي مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ حَيَّرَتْ أَذْهَانَ البَاحِثِينَ .

حَتَّىٰ وَجَدْنَا « طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ البَرْبَرِيَّ » ؛ يَخْطُبُ فِي جُنْدِهِ وَهُوَ عَلَىٰ جَبَلِ طَارِقٍ خُطْبَتَهُ الرَّائِعَةَ الَّتِي ازْدَانَتْ بِهَا كُتُبُ الأَدَبِ ، وَتَنَاقَلَهَا الفُصَحَاءُ الأَبِنَاءُ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ ، وَحَفِظَهَا المَلَايِينُ مِنْ أَبْنَاءِ لُغَةِ القُرْآنِ .

* * *

وَلَقَدْ لَقِيَ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ مِنْ دَارِ الخِلَافَةِ فِي

« دِمَشْقَ » غَايَةَ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ قَائِدٌ مِنْ عَوْنٍ وَتَأْيِيدٍ .

حَيْثُ شَدَّ الخُلَفَاءُ أَزْرَهُ ، وَحَمَوْا ظَهْرَهُ ، وَأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عَنْ سَمَاعِ أَصْوَاتِ خُصُومِهِ أَيًّا كَانَتْ مَنْزِلَةُ أُولَئِكَ الخُصُومِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ عَبْدَ المَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ أَسْنَدَ وِلَايَةَ « مِصْرَ » إِلَىٰ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ .

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَابًّا مُعْتَدًّا[1] بِحَسَبِهِ ، مُدِلًّا[2] بِمَنْزِلَتِهِ مِنَ الخَلِيفَةِ .

فَسَاءَهُ أَنْ يَتَخَطَّاهُ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ ، وَأَنْ يُكَاتِبَ دَارَ الخِلَافَةِ مُبَاشَرَةً دُونَ أَنْ تَمُرَّ رَسَائِلُهُ بِهِ ؛ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ وُلَاةُ إِفْرِيقِيَّةَ مِنْ قَبْلُ ...

فَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَاباً جَاءَ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ كُنْتَ مِنْ عَمَّيَّ عَبْدِ العَزِيزِ وَبِشْرٍ بَيْنَ

---

(١) معتداً بحسبه : معتمداً عليه وجاعله عدته .

(٢) مُدِلًّا : ذو دلال وزيادة في القرب .

مِهَادَيْنِ[١] تَعْلُو بِهِمَا عَنِ الحَضِيضِ، وَتَسْتَدْفِئُ بِدِثَارِهِمَا... حَتَّىٰ عَلَا بَيْنَ النَّاسِ قَدْرُكَ وَغَرَّتْكَ نَفْسُكَ...

فَلَا تَحْسَبْنِي كَمَنْ كُنْتَ تَخْلِبُهُ[٢]...

وَأَيْمُ[٣] اللَّهِ لَأَضَعَنَّ مِنْكَ مَا رَفَعَا، وَلَأُقِلَّنَّ مَا كَثَّرَا.

فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ رِسَالَتَهُ كَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ قَرَأْتُ رِسَالَتَكَ، وَوَقَفْتُ عَلَىٰ مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ رُكُونِي[٤] إِلَىٰ عَمَّيْكَ وَارْتِفَاعِي بِهِمَا...

وَلَعَمْرِي إِنِّي كُنْتُ لِتِلْكَ المَنْزِلَةِ الَّتِي أَنْزَلَانِي بِهَا أَهْلاً...

وَلَوْ أَنَّكَ خَبَرْتَ مِنْ حَالِي مَا خَبَرَا؛ لَمَا صَغَّرْتَ مِنْ أَمْرِي عَظِيماً، وَلَا جَهِلْتَ مِنْ شَأْنِي مَعْلُوماً.

---

(١) مِهَادَيْن: المهاد في اللغة هو الفراش، وكأنه يقول له: لقد كان لك سندان ترتاح إليها.
(٢) تخلبه: تغره وتخدعه.
(٣) أيم الله: صيغة للقسم.
(٤) من ركوني: من اعتمادي عليهم.

وَأَمَّا تَهْدِيدُكَ إِيَّايَ بِأَنَّكَ وَاضِعٌ مِنِّي مَا رَفَعَا ؛ فَذَلِكَ لَيْسَ بِيَدِكَ ، وَلَا هُوَ إِلَيْكَ ...

فَأَبْرِقْ لِغَيْرِي وَأَرْعِدْ .

وَلَمَّا بَلَغَتِ الرِّسَالَةُ عَبْدَ اللّٰهِ بْنَ عَبْدِ المَلِكِ اسْتَشَاطَ لَهَا غَضَباً ، وَتَمَيَّزَ مِنْهَا غَيْظاً .

ثُمَّ بَعَثَ الرِّسَالَةَ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ فِي « دِمَشْقَ » ... وَمَعَهَا رِسَالَةٌ مِنْهُ يَشْكُو فِيهَا مِنْ تَطَاوُلِ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ عَلَيْهِ ، وَاسْتِخْفَافِهِ بِهِ ...

فَلَمَّا بَلَغَتِ الرِّسَالَتَانِ دَارَ الخِلَافَةِ ؛ قَرَأَهُمَا الخَلِيفَةُ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ .

ثُمَّ عَلَّقَ عَلَيْهِمَا قَائِلاً :

لِلّٰهِ دَرُّ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ مَا أَثْبَتَ جَنَانَهُ وَأَمْضَىٰ لِسَانَهُ ، وَلَقَدْ كَانَ أَخِي عَبْدُ اللّٰهِ غَنِيًّا عَنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ الوَلِيدُ أَنْ عَزَلَ أَخَاهُ عَنْ وِلَايَةِ « مِصْرَ »

لِسُوءِ تَدْبِيرِهِ ، وَأَطْلَقَ يَدَ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ ، لِيَنْشُرَ الإِسْلَامَ فِي رُبُوعِ أُورُبَّا ...

بَعْدَ أَنْ بَسَطَ ظِلَّهُ الوَارِفَ عَلَىٰ الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ ؛ الَّذِي أَصْبَحَ يُدْعَىٰ بِالجَنَاحِ الأَيْسَرِ لِلإِسْلَامِ .

مَضِيقُ جَبَلِ طَارِقٍ

لَمْ يَكُنْ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ مُغَامِراً مِنَ الْمُغَامِرِينَ يَفْتَحُ الْبُلْدَانَ ، لِشَهْوَةِ الْفَتْحِ ، وَجَمْعِ الْمَغَانِمِ ...

وَإِنَّمَا كَانَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ .

فَكَانَ لَا يَفْتَحُ الْبَلَدَ مِنَ الْبُلْدَانِ ؛ إِلَّا وَيَبُثُّ فِيهِ الدُّعَاةَ الْهُدَاةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمُ الْقُرْآنَ ...

وَيُؤَدِّبُونَهُمْ بِآدَابِ الْإِسْلَامِ ، حَتَّىٰ أَسْلَمَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ عَلَىٰ يَدَيْهِ ...

وَأَصْبَحَتْ قُوَّةً مِنْ أَعْظَمِ قُوَىٰ الْخَيْرِ ...

وَسِلَاحاً مِنْ أَمْضَىٰ أَسْلِحَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا تَمَّ لِمُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ فَتْحُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَرَفَعَ رَايَاتِ الْإِسْلَامِ فَوْقَ « طَنْجَةَ » ...

وَجَدَ نَفْسَهُ يَقِفُ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ بِلَادِ « الأَنْدَلُسِ » ، لَا يَفْصِلُهُ عَنْهَا إِلَّا مَضِيقٌ ضَيِّقٌ .

وَكَانَ يَجْلِسُ عَلَىٰ عَرْشِ « الأَنْدَلُسِ » مَلِكٌ سَلَبَ العَرْشَ مِنْ وَرَثَتِهِ الشَّرْعِيِّينَ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ بِالغَدْرِ وَالقُوَّةِ ...

فَكَرِهَهُ أَبْنَاءُ قَوْمِهِ ، وَكَرِهَ أَبْنَاءَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ اسْمُ هَٰذَا المَلِكِ المُغْتَصِبِ « لُذَرِيقَ » .

* * *

سَارَ « لُذَرِيقُ » فِي قَوْمِهِ سِيرَةً فَاسِدَةً ، وَلَمْ يَرْعَ لِعُمَّالِهِ حُرْمَةً ...

فَغَدَرَ بِابْنَةِ « يُولْيَانَ » أَحَدِ كِبَارِ وُلَاتِهِ ، وَكَانَتْ فَتَاةً رَائِعَةَ الحُسْنِ بَارِعَةَ الجَمَالِ ...

فَأَقْسَمَ « يُولْيَانُ » عَلَىٰ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ « لُذَرِيقَ » لِشَرَفِهِ المَغْصُوبِ وَعِرْضِهِ المَسْلُوبِ شَرَّ انْتِقَامٍ .

كَانَ « يُولْيَانُ » وَالِياً عَلَىٰ « سَبْتَةَ » وَكَانَتْ « سَبْتَةُ »

إِذْ ذَاكَ ثَغْراً[١] إِفْرِيقِيًّا تَابِعاً لِمَلِكِ « الأَنْدَلُسِ » ...

فَاتَّصَلَ « يُولْيَانُ » بِمُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ وَأَغْرَاهُ بِفَتْحِ « الأَنْدَلُسِ » ...

وَبَصَّرَهُ[٢] بِمَوَاطِنِ الضَّعْفِ فِيهَا ، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يَضَعَ سَائِرَ طَاقَاتِهِ فِي خِدْمَةِ المُسْلِمِينَ ؛ لِيَنْتَقِمَ مِنْ « لُذَرِيقَ » سَالِبِ المُلْكِ ، وَغَاصِبِ العِرْضِ .

* * *

لَمْ يَشَأْ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ أَنْ تَضِيعَ مِنْ يَدِهِ هَذِهِ الفُرْصَةُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَيْضاً أَنْ يُرْكِبَ المُسْلِمِينَ مَرَاكِبَ الغَرَرِ[٣] ...

فَرَأَىٰ أَنْ يَخْتَبِرَ صِدْقَ « يُولْيَانَ » ، وَأَنْ يَسْبِرَ[٤] بِلَادَ « الأَنْدَلُسِ » بِالسَّرَايَا المُسْتَطْلِعَةِ قَبْلَ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهَا بِالجَيْشِ الغَازِي .

---

(١) الثغر : المنطقة الفاصلة بين حدود بلد وحدود أعدائهم .
(٢) بصره : كشف له .
(٣) مراكب الغرر : السير في طرق غير مأمونة .
(٤) يسبر : يختبر ويمتحن .

فَاخْتَارَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِيهِ مِنَ «البَرْبَرِ» يُدْعَىٰ «طَرِيفاً» ...

وَكَانَ «طَرِيفٌ» هَذَا مِنْ أَشْجَعِ الرِّجَالِ قَلْباً، وَأَشَدِّهِمْ بَأْساً، وَأَصْبَرِهِمْ عَلَىٰ القِتَالِ، فَوَضَعَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ أَرْبَعمِائَةِ مُحَارِبٍ وَمِائَةَ فَارِسٍ.

* * *

وَفِي أَوَائِلِ رَمَضَانَ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ لِلهِجْرَةِ عَبَرَ «طَرِيفٌ» المَضِيقَ المَعْرُوفَ الْيَوْمَ بِمَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ، وَاسْتَقَرَّ عَلَىٰ الشَّاطِيءِ «الأَنْدَلُسِيِّ» فِي المَكَانِ الَّذِي سُمِّيَ بَعْدَ ذَلِكَ بِاسْمِ «جَزِيرَةِ طَرِيفٍ» تَذْكَاراً لِأَوَّلِ غَازٍ مُسْلِمٍ نَزَلَ فِي بِلَادِ «الأَنْدَلُسِ».

أَغَارَ «طَرِيفٌ» بِرِجَالِهِ عَلَىٰ أَرْضِ «الأَنْدَلُسِ» إِغَارَاتٍ جَرِيئَةً مُوَفَّقَةً، وَبَثَّ[1] سَرَايَاهُ فِي أَرْجَائِهَا فِي شَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ مُذْهِلَيْنِ، ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ مَوْلَاهُ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ يَقُودُ السَّبَايَا الكَثِيرَةَ، وَيَجُرُّ المَغَانِمَ النَّفِيسَةَ الوَفِيرَةَ،

---

(١) بث سراياه: نشر جنوده.

وَيَحْمِلُ المَعْلُومَاتِ القَيِّمَةَ، وَيُبَشِّرُ بِإِمْكَانِ الفَتْحِ، وَيُؤَكِّدُ صِدْقَ «يُولْيَانَ».

عِنْدَ ذَلِكَ عَزَمَ مُوسَىٰ بْنُ نُصَيْرٍ عَلَىٰ الفَتْحِ، وَجَعَلَ يَبْحَثُ عَنِ القَائِدِ العَظِيمِ الَّذِي يُرَجَّىٰ لِمِثْلِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ...

فَنَثَرَ كِنَانَةَ رِجَالِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَجَمَ[1] عِيدَانَهَا لِيَرَىٰ أَيُّهَا أَصْلَبُ عُوداً وَأَمَرُّ مَكْسِراً[2]... فَمَا وَجَدَ إِلَّا فَتَىٰ الفِتْيَانِ طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ...

* * *

فَقَدْ كَانَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ مَعْرُوفاً بِالثَّبَاتِ حِينَ تَنْخَلِعُ القُلُوبُ...

مَشْهُوراً بِالإِقْدَامِ حِينَ تُحْجِمُ كِبَارُ النُّفُوسِ...

مَشْهُوداً لَهُ بِالإِيمَانِ حِينَ يُزَلْزِلُ الخَوْفُ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ.

---

(١) عجم عيدانها: اختبرها، وفي الكلام تشبيه للرجال بالسهام.
(٢) أمر مكسراً: أصعب كسراً.

لَمْ يَكُنْ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ ...

وَلَا سَلِيلاً[1] لِعَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ العَرَبِ ...

وَإِنَّمَا كَانَ امْرَءًا « بَرْبَرِيَّ » العِرْقِ .

غَيرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ مُوسَىٰ بْنَ نُصَيرٍ مِنَ اخْتِيَارِهِ لِلأَمْرِ العَظِيمِ .

فَحَسْبُ طَارِقٍ نَسَباً أَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَىٰ الإِسْلَامِ ...

وَيَكْفِيهِ حَسَباً أَنَّهُ يَلُوذُ بِالقُرْآنِ ...

وَأَكْرِمْ بِالإِسْلَامِ مِنْ نَسَبٍ ، وَأَعْظِمْ بِالقُرْآنِ مِنْ حَسَبٍ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ مَجِيدٍ مِنْ أَيَّامِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، فَصَلَ[2] طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ عَنِ البَرِّ الإِفْرِيقِيِّ بِسَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ الجُنْدِ ، جُلُّهُمْ مِنَ « البَرْبَرِ » ، تَحْمِلُهُمْ أَرْبَعُ سُفُنٍ كَبِيرَةٍ أُعِدَّتْ لِذَلِكَ ...

---

(١) سليلاً : من نسل وذرية أحد العظماء .   (٢) فصل : خرج .

فَأَلْقَتِ السُّفُنُ مَرَاسِيَهَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ العَتِيدَةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ الشَّاطِئِ الأُورُبِيِّ ، وَالمَعْرُوفَةِ الْيَوْمَ فِي سَائِرِ لُغَاتِ الدُّنْيَا بِاسْمِ "GIBRALTAR" « جِيبْرَالتَارْ » أَوْ جَبَلَ طَارِقٍ ...

* * *

بَثَّ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ عُيُونَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَاسْتَعَانَ بِخِبْرَاتِ « يُولْيَانَ » ...

فَجَاءَتْهُ الأَنْبَاءُ بِأَنَّ « لُذَرِيقَ » قَدْ حَشَدَ لَهُ مِنَ الجُنْدِ عَشَرَةَ أَمْثَالِ مَا مَعَهُ ...

وَأَعَدَّ لِلِقَائِهِ مِنَ العُدَّةِ مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ .

فَأَرْسَلَ إِلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ نُصَيْرٍ يَسْتَنْجِدُهُ ... فَأَنْجَدَهُ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ عَسْكَرِهِ ، وَبِذَلِكَ بَلَغَتْ عِدَّةُ المُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ الفَتْحِ الأُوْلَىٰ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً مِنَ المُجَاهِدِينَ .

وَكَانَ مِمَّا شَدَّ مِنْ أَزْرِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ أَنَّهُ حِينَ كَانَ يَعْبُرُ البَحْرَ ، رَأَىٰ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نَوْمِهِ ، وَقَدْ

حَفَّتْ بِهِ كَوْكَبَةٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَهُمْ مُتَقَلِّدُو السُّيُوفِ، مُتَنَكِّبُو[3] القِسِيِّ، وَرَسُولُ اللَّهِ يُنَادِيهِ قَائِلاً:

(تَقَدَّمْ لِشَأْنِكَ يَا طَارِقُ).

ثُمَّ دَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَىٰ بِلَادِ «الأَنْدَلُسِ»، وَدَخَلَ هُوَ وَجَيْشُهُ وَرَاءَهُمْ...

عِنْدَ ذَلِكَ هَبَّ طَارِقٌ مِنْ نَوْمِهِ فَرِحاً مُسْتَبْشِراً بِمَا رَأَىٰ وَمَا سَمِعَ، وَبَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِالفَتْحِ، وَأَيْقَنَ أَنَّ هَذَا الحُلْمَ إِنَّمَا هُوَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، فَقَوِيَتْ نَفْسُهُ، وَاشْتَدَّ فُؤَادُهُ، وَوَثِقَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ.

* * *

جَمَعَ «لُذَرِيقُ» لِلِقَاءِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ جَيْشاً جَرَّاراً عِدَّةُ رِجَالِهِ مِائَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، وَحَشَدَ فِيهِ أُمَرَاءَ «القُوطِ» وَمُلُوكَهُمْ، وَفُرْسَانَهُمْ.

وَنَزَلَ الجَيْشَانِ عَلَىٰ مَكَانَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ، فَأَرَادَ

(٣) متنكبو القسي: يحملون القسي علىٰ أكتافهم.

« لُذَرِيقُ » أَنْ يَسْتَطْلِعَ أَحْوَالَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَقِفَ عَلَىٰ عَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ ...

فَنَدَبَ[1] لِذَلِكَ رَجُلاً يَثِقُ بِهِ ، وَيَعْرِفُ نَجْدَتَهُ وَحِذْقَهُ[2].

مَضَىٰ رَسُولُ « لُذَرِيقَ » إِلَىٰ غَايَتِهِ ، فَلَمَّا اسْتَشْرَفَهُ[3] الْمُسْلِمُونَ وَثَبُوا إِلَيْهِ ، فَأَطْلَقَ لِفَرَسِهِ العِنَانَ ، وَوَلَّىٰ هَارِباً ...

فَتَبِعَهُ الفُرْسَانُ بِأَسْرَعَ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ وَانْطَلَقُوا وَرَاءَهُ ، انْطِلَاقَ السَّهْمِ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا بِأُعْجُوبَةٍ ...

* * *

بَلَغَ الرَّسُولُ مُعَسْكَرَ قَوْمِهِ مَبْهُورَ[4] الأَنْفَاسِ خَائِرَ[5] القُوَىٰ ، وَلَمَّا سَكَتَ عَنْهُ الهَلَعُ قَالَ يُخَاطِبُ « لُذَرِيقَ » :

---

(١) ندب : أرسل.
(٢) حِذْقه : إتقانه للأمور.
(٣) استشرفه : رأوه مقبلاً عليهم.
(٤) مبهور الأنفاس : مقطوع الأنفاس.
(٥) خائر القوىٰ : ضعيف القوة لا يكاد يقف علىٰ قدميه.

خُذْ عَلَىٰ نَفْسِكَ(١) أَيُّهَا المَلِكُ ، وَالْزَمِ الحَذَرَ عَلَىٰ مُلْكِكَ وَجَيْشِكَ ...

فَقَدْ جَاءَكَ مَنْ لَا يُرِيدُ إِلَّا المَوْتَ ، أَوْ إِصَابَةَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ .

* * *

وَفِي صَبِيحَةِ الثَّامِنِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، كَانَ « لُذَرِيقُ » يَتَّجِهُ إِلَىٰ لِقَاءِ طَارِقٍ ، وَهُوَ فِي عَجَلَتِهِ الحَرْبِيَّةِ قَدْ نُصِبَ لَهُ فَوْقَهَا سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ ...

وَعَلَىٰ رَأْسِهِ مَظَلَّةٌ مُكَلَّلَةٌ بِالدُّرِّ ، مُرَصَّعَةٌ بِاليَوَاقِيتِ وَالزَّبَرْجَدِ(٢) ، وَقَدْ تَحَلَّىٰ بِأَبْهَىٰ حُلَّةٍ وَتَزَيَّنَ بِأَتَمِّ زِينَةٍ .

وَقَدْ أَحَاطَ حَرَسُهُ بِعَرَبَتِهِ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالمِعْصَمِ ، وَحَفَّ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ جُنُودِهِ .

وَكَانَ فِي الجِهَةِ المُقَابِلَةِ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ يَدُقُّ

---

(١) خُذ علىٰ نفسك : أي خذ الحيطة والحذر .

(٢) الزبرجد : نوع من الأحجار الكريمة .

بِقَدَمَيْهِ الأَرْضَ بَارِزاً صَدْرُهُ، مَكْشُوفاً مَنْكِبَاهُ، مُصْلَتاً سَيْفُهُ...

وَاقِفاً عَلَىٰ نَشَزٍ[1] مِنَ الأَرْضِ يَخْطُبُ جُنُودَهُ خُطْبَةَ الجِهَادِ فَيَقُولُ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَيْنَ المَفَرُّ... البَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ وَالعَدُوُّ أَمَامَكُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا الصِّدْقُ وَالصَّبْرُ...

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي هَذِهِ الجَزِيرَةِ أَضْيَعُ مِنَ الأَيْتَامِ فِي مَأْدُبَةِ اللِّئَامِ...

وَقَدِ اسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوُّكُمْ بِجَيْشِهِ وَأَسْلِحَتِهِ، وَأَقْوَاتُهُ[2] مَوْفُورَةٌ، وَأَنْتُمْ لَا مَلْجَأَ لَكُمْ إِلَّا سُيُوفُكُمْ...

وَلَا أَقْوَاتَ لَكُمْ إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ[3] مِنْ أَيْدِي عَدُوِّكُمْ...

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَىٰ الأَشَقِّ قَلِيلاً اسْتَمْتَعْتُمْ

---

(١) نشز من الأرض: مرتفع من الأرض.
(٢) أقواته: أنواع طعامه موفورة.
(٣) ما تستخلصونه: ما تتمكنون من أخذه.

بِالأَرْفَهِ[1] الأَلَذِّ طَوِيلاً ...

وَقَدِ انْتَخَبَكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ مِنَ الأَبْطَالِ شُجْعَاناً ...

وَرَضِيَكُمْ لِمُلُوكِ هَذِهِ الجَزِيرَةِ أَصْهَاراً، وَأَخْتَاناً[2] ...

لِيَكُونَ حَظُّهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ عَلَىٰ إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الجَزِيرَةِ ...

وَاعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مُجِيبٍ إِلَىٰ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ...

وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَىٰ الجَمْعَيْنِ حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَىٰ طَاغِيَةِ القَوْمِ «لُذَرِيقَ» ... فَقَاتِلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَاحْمِلُوا مَعِي ...

فَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ، فَقَدْ كَفَيْتُكُمْ أَمْرَهُ[3] ...

---

(١) الأَرْفَه الأَلَذّ : الأكثر رفاهية والأعظم لذة .
(٢) أَخْتَاناً : أصهاراً تتزوجون بناتهم أو يتزوجون بناتكم .
(٣) كفيتكم أمره : أكون قد قتلته وأرحتكم منه .

وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ وُصُولِي إِلَيْهِ فَاخْلُفُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ، وَاحْمِلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخْذَلُونَ(١).

وَمَا أَنْ أَتَمَّ طَارِقٌ خُطْبَتَهُ، حَتَّىٰ كَانَ جَيْشُ «الإِسْبَانِ» الكَثِيفُ يَقْتَرِبُ مِنْ سَاحَةِ المَعْرَكَةِ فِي بُطْءٍ، وَيَتَهَادَىٰ إِلَيْهَا فِي خُيَلَاءٍ... فَقَدْ كَانَ مِائَةَ أَلْفٍ.

وَجَيْشُ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً.

ثُمَّ الْتَقَىٰ الجَمْعَانِ...

وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَىٰ مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ دَامَتْ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا بِسَنَةٍ مِمَّا نَعُدُّ...

أَبْدَىٰ فِيهَا الفَرِيقَانِ مِنْ ضُرُوبِ البُطُولَاتِ، وَصُنُوفِ التَّضْحِيَاتِ، وَفُنُونِ الحَرْبِ، مَا لَا يَزَالُ يَذْكُرُهُ التَّارِيخُ فِي أَرْوَعِ صَفَحَاتِهِ.

ثُمَّ انْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ...

---

(١) يُخْذَلُون: ينهزمون ويفرون.

وَهَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ أَذَلَّ بِهَا أَعْدَاءَهُ ...

فَوَلَّىٰ « لُذَرِيقُ » الأَدْبَارَ ، وَانْفَسَحَ الطَّرِيقُ أَمَامَ طَارِقٍ وَجُنْدِهِ ...

وَمَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ جَنَّةِ الدُّنْيَا بِلَادِ الأَنْدَلُسِ بِنِعْمَةِ الإِسْلَامِ ...

وَرُفِعَتْ عَلَىٰ رُبَاهَا الشُّمِّ رَايَاتُ القُرْآنِ .

الفهرس

* * *